نور الاقتباس


في مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عباس

تصنيف

الحافظ الإمام عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي
رحمه الله تعالى
(٧٣٦ - ٧٩٥ هـ)

تحقيق وتعليق
محمد بن ناصر العجمي


طباعة وتوزيع
إدارة الثقافة الإسلامية
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م



إهـــــداء ٢٠١٠

د/ خالد عزب

جمهورية مصر العربية



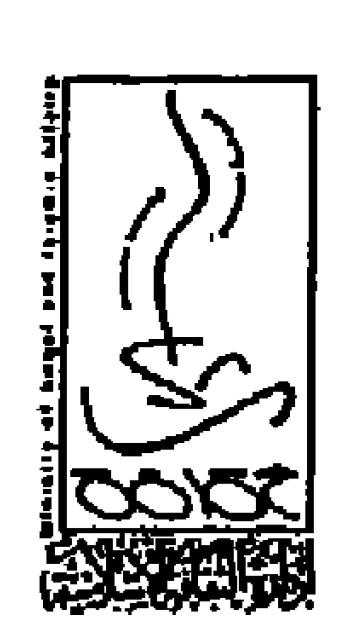
نور الاقتباس

في مشكاة وصية النبي صلى الله عليه وسلم

لابن عباس







في مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عباس

تصنيف

الحافظ الإمام عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي
رحمه الله تعالى
(٧٣٦ - ٧٩٥ هـ)

تحقيق وتعليق

محمد بن ناصر العجمي

الطبعة الوحيدة الكاملة

طباعة وتوزيع

إدارة الثقافة الإسلامية

١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م



شكر وتقدير

يطيب لي في مطلع تحقيق هذا الكتاب أن أتقدَّم بشكري الجزيل، وثنائي العطر الأثيل إلى إدارة الثقافة الإسلامية بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت؛ حيث رغبت أن يكون هذا الكتاب ضمن إصداراتها، بارك الله في جهود هذه الإدارة وزادها توفيقاً وسداداً لما يحبّ ويرضى.

محقِّق الكتاب

المقـــدّمَة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إن الحَمـد لله نحمده ونستعينـه ونستغفره، ونعـوذ بالله من شـرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

أمـا بـعـد:

فقـد ورد من حديث ابن عبـاس ــ رضي الله عنهمـا ــ أنَّ النبـي ﷺ قـال له: «يـا غلام إني أعلمـك كلمات. احفظ الله يحفـظك...» إلى آخـر تلك الوصـايا العـظيمة في هـذا الحديث النبـوي الكريم ممـا يجب على المسلم أن يتـأملها ويتفهمهـا فهماً لا لبس فيـه ولا غموض،

والخطورة كل الخطورة تَكمُن في الجهل بها وعدم فهمها وتطبيقها.

ومن أول هذه الوصايا العظيمة: حفظ الله تبارك وتعالى وهي القيام بحقوقه وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، والوقوف عند الأوامر في امتثالها والعمل بها، والوقوف عند النواهي بتركها وعدم مقاربتها، هذا هو معنى حفظ الله قال تعالى:

﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾ [التوبة: ١١٢].

وقال جل شأنه:

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ﴾ [ق: ٣٢].

وقد أمر الله ــ عز وجل ــ بحفظ أمور كثيرة من هذا الدين وذلك في مثل قوله تعالى:

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

هذا وقد أثنى الله على المحافظين على الصلوات فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٩].

فالصلوات الخمس قد أمر الله بالنص الصريح بحفظها والقيام بأدائها وهي داخلة في معنى قول النبي ﷺ: «احفظ الله...»، هذا نموذج من معنى حفظ الله، وهو مما وصى به النبي ﷺ ابن عباس الذي كان في مقتبل عمره وهو بحاجة إلى من يرسم له المنهج السوي، فأرشده النبي ﷺ وأرشد كل شاب بل كل مسلم إلى ما يحتاجه من توحيد الله والتوجه إليه بالسؤال، وإفراده بالألوهية والاستعانة بالله تعالى في شتّى الأحوال، والتوكل عليه في جميع الأمور كلها، والامتثال لأوامره التي من حافظ عليها كانت سبباً لحفظ المرء في دينه ودنياه... فهكذا كان النبي ﷺ يوجه أصحابه وهو النبي المعصوم ﷺ الذي

لا ينطق عن الهوى إن هو إلاَّ وحي يُوحى، والقائد المثالي الذي يوجه إلى الخير.

وإن هذه الرسالة التي بين يديك قد وضح فيها الإمام ابن رجب ــ رحمه الله ــ حديث ابن عباس المذكور وجلاه في أحسن صورة، وأجمل حُلة، وليس هذا الحديث بأول حديث يهتم به ويشرحه بل كان ــ رحمه الله ــ يعمد إلى الأحاديث التي لها أهميتها في ترسيخ العقيدة وتزكية النفوس، فيفردها بالتأليف ويشرحها ويبيِّن مراميها، مع الاهتمام بالناحية الوعظية وذكر نماذج من أقاويل السلف وما كانوا يتحلون به من خلق عظيم تجاه الله وتجاه خلقه، كل هذا بلطف عبارة وجمال أسلوب، وترابط الأقوال بعضها ببعض في إتقان معنى وحسن بيان.

وقد ذكر هذه الرسالة المصنف ــ رحمه الله ــ في شرحه لهذا الحديث في كتابه: «جامع العلوم والحكم» (ص ١٦١)، حيث قال: «وقد أفردت لشرحه جزءاً كبيراً، ونحن نذكر ههنا مقاصده على وجه الاختصار...». وقد ذكرها ابن عبد الهادي المِبرد في «الجوهر المنضد» (ص ٥٠)، وكذا ذكرها ابن حميد الحنبلي في «السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة» (ص ١١٧)، وقال الصنعاني في «سبل السلام» (٤/١٧٦): «وهو حديث ــ يعني حديث ابن عباس ــ جليل أفرده بعض علماء الحنابلة بتصنيف مفرد»، يعني به ابن رجب، وقد نقل عنه بعض العبارات حول شرح هذا الحديث مما يدل على أهمية هذه الرسالة ومكانتها عند أهل العلم.

● ● ●

أصـول الكتـاب

اعتمدت في تحقيقي لهذه الرسالة على أربع نسخ خطية.

١ ــ **النسخة الأولى**: نسخة جامعة برنستون (Princeton) بأمريكا. وهي فيها برقم (٤١٦١ ــ مجاميع) من ورقة ١١٧ ــ ١٤٧، ويتراوح عدد الأسطر في كل ورقة منها ما بين (٢١ ــ ٢٢) سطراً، نسخت في الخامس من ذي القعدة سنة ست عشرة وثمانمائة، أي بعد وفاة المصنف بإحدى وعشرين سنة، وبآخرها قراءة ومقابلة مما ينبىء على أنها نسخة مصححة ومعتمدة، والخطأ فيها قليل وقد اتخذتها أصلاً للتحقيق ورمزت لها بحرف (ب) وهي من مصورات مركز البحث العلمي وهي فيه برقم (٦٦٣)، وبهذه المناسبة لا يفوتني أن أتقدم بجزيل شكري وتقديري إلى الأخ فضيلة الدكتور عبد الرحمن بن سليمان العثيمين مدير مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى في مكة المكرمة، الذي تكرَّم فصوَّر لي هذه النسخة فله مني ومن أهل العلم الثناء الوافر ومن الله أحسن الجزاء.

٢ ــ **النسخة الثانية**: وهي نسخة شستربتي برقم (٤٩٥١) تبدأ من صفحة ٢٤٨ ــ ٣٢١ وعدد الأسطر عشرون سطراً في كل ورقة، وبها نقص في آخرها بمقدار ثلاث ورقات، إلاَّ أن الورقة التي فيها اسم الناسخ وسنة النسخ موجودة، وقد نسخت في سبع وعشرين من شهر المحرم سنة ست عشرة وثمانمائة، أي في نفس السنة التي نسخت فيها النسخة الأولى، واسم الناسخ: علي بن أحمد المقرىء الدمشقي، وخطها جيد، وقد رمزت لهذه النسخة بحرف (ش).

٣ ــ النسخة الثالثة: وهي نسخة جامعة ييل وهي فيها برقم (٦٧٣ ــ مجاميع) تبدأ من ورقة ١١ ــ ٤٥ وعدد الأسطر في كل ورقة ٢٣ سطراً، وقد نسخت في سنة تسع عشرة ومائة وألف، وناسخها هو رجب بن محمد العمراني الشافعي، وخطها جيد وواضح إلَّا أن فيها بعض الأخطاء، والتي لا يخلو منها مخطوط، وقد رمزت لهذه النسخة بحرف (ل).

وبهذه المناسبة فإنني أشكر الأخ الفاضل/ حامد النهار؛ فقد حصلت على هذه النسخة بواسطته فجزاه الله خيراً.

٤ ــ النسخة الرابعة: وهي نسخة مكتبة جامعة الملك سعود المركزية ــ الرياض سابقاً ــ وهي برقم (١٦٣٧/٨ ضمن مجموع) تبدأ من صفحة ١٧٦ ــ ٢٢٨، وتتراوح عدد الأسطر فيها ما بين (٢٤ ــ ٢٧) سطراً، وخطها نسخي معتاد، نسخت سنة ١٣٣٣هـ وناسخها هو: عبد الله بن إبراهيم الربيعي، وقد رمزت لهذه النسخة بحرف (ض).

هذا وقد اطلعت على نسخة أخرى من الكتاب في مكتبة الشيخ عبد المحسن العباد ــ حفظه الله ــ في المدينة النبوية، إلَّا أن هذه النسخة حديثة النسخ فقد نسخت سنة ١٣٣٩هـ على ما فيها من أخطاء وسقط كثير، فصرفت النظر عنها ولم أعتمد عليها.

واعلم أن هذه الرسالة قد طبعت قديماً بتعليق الشيخ عبد الرحمن أبي حجر في مكة المكرمة في المطبعة الماجدية سنة ١٣٤٧هـ، ثم طبعت عن هذه الطبعة سنة ١٤٠٠هـ بتعليق عز الدين النجار، وهاتان الطبعتان ينقص منهما ما يقارب ثلث الكتاب[١]، بالإضافة إلى الأخطاء المطبعية الفاحشة، وقد رمزت لمطبوعة الماجدية بحرف (ط).

● ● ●

(١) والنقص فيها يبدأ من ص ٨٣ إلى ص١١٧، من هذه الطبعة.

عملي في الكتاب

١ ـ ضبط نص الكتاب وتصحيحه، وقد اتخذت نسخة (ب) أصلاً للتحقيق، ونبهت على المهم من اختلاف النسخ وما كان في غير نسخة الأصل وضعته بين معكوفين.

٢ ـ عزوت الآيات القرآنية إلى مواضعها من المصحف الكريم.

٣ ـ خرجت الأحاديث النبوية، وما كان منها في غير الصحيحين تكلمت عليه وفقاً لقواعد مصطلح الحديث، ولم أخرج جميع الآثار الواردة في الكتاب، بل ما كان منها متيسراً خرَّجته لأن ذلك يتطلب الوقت الكثير.

٤ ـ علقت على بعض المواضع من الكتاب.

٥ ـ صنعت بعض الفهارس للكتاب وهي :

(١) فهرست الأحاديث النبوية.

(٢) فهرست الموضوعات.

وأسأل الله العظيم أن يتقبل مني هذا العمل على ما فيه من تقصير، ويجعله في موازين حسناتي :

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ . .

وصلى الله على النبيّ الأميّ وعلى آله وصحبه وسلم.

● ● ●

ترجمة المؤلف
(نبذة مختصرة)

* اسمه ونسبه:

هو زين الدين عبد الرحمٰن بن الحسن بن محمد بن أبي البركات مسعود السلامي البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بـ (ابن رجب). ولد ابن رجب في بغداد سنة ٧٣٦هـ.

* مشايخه:

أول مشايخه والده الشيخ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عبد الرحمٰن، وقد كان عالماً صالحاً، وهذا ذكر بعض مشايخه:

١ ــ القاضي أبو العباس أحمد بن الحسن بن عبد الله، المشهور بابن قاضي الجبل المتوفى سنة ٧٧١هـ.

٢ ــ صلاح الدِّين، أبو سعيد خليل بن كيكلدي العلائي المتوفى سنة ٧٦١هـ.

٣ ــ جمال الدين، أبو سليمان داود بن إبراهيم العطار المتوفى سنة ٧٥٢هـ.

٤ ــ محمد بن إسماعيل بن إبراهيم المعروف بابن الخبازي المتوفى سنة ٧٥٦هـ.

٥ ـ شمس الدين، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١هـ.

٦ ـ صدر الدين، أبو الفتح محمد بن إبراهيم الميدومي المتوفى سنة ٧٥٤هـ.

٧ ـ فتح الدين، أبو الحرم، محمد بن محمد بن محمد القلانسي الحنبلي المتوفى سنة ٧٦٥هـ. وغيرهم.

* تلاميذه:

تتلمذ على الحافظ ابن رجب جمع ليس بالهين ونذكر جملة منهم:

١ ـ أحمد بن أبي بكر بن أحمد الحموي الأصل الحلبي الحنبلي ويعرف بابن الرسام المتوفى سنة ٨٤٤هـ.

٢ ـ داود بن سليمان بن عبد الله الموصلي ثم الدمشقي الحنبلي المتوفى سنة ٨٤٤هـ.

٣ ـ عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن عياش الزين الدمشقي الأصل المكي المتوفى سنة ٨٥٣هـ.

٤ ـ الحافظ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الزين أبو ذر المصري الحنبلي ويعرف بالزركشي المتوفى سنة ٨٤٦هـ.

٥ ـ علي بن محمد بن علي الطرسوسي المزي المتوفى سنة ٨٥٠هـ تقريباً.

٦ ـ علي بن محمد بن علي البعلي ثم الدمشقي الحنبلي علاء الدين أبو الحسن المعروف بابن اللحام، وكان أقرب تلاميذه إليه توفي سنة ٨٠٣هـ.

٧ ــ عمر بن محمد بن أبي بكر السراج أبو حفص الحلبي ويعرف بابن المُزَلِّق المتوفى سنة ٨٤١هـ. وغيرهم.

* ثناء العلماء عليه:

قد أثنى عليه كل من ترجم له ثناءً عطراً وإليك ذكر بعض تلك الأقوال في حقه ــ رحمه الله ــ:

قال ابن حجي: «أتقن الفن، وصار أعرف أهل عصره بالعلل وتتبع الطرق».

وقال ابن فهد المكي: «الإمام الحافظ الحجة، والفقيه العمدة، أحد العلماء الزهاد، والأئمة العباد، مفيد المحدثين، واعظ المسلمين».

وقال أيضاً: «كان رحمه الله تعالى إماماً ورعاً زاهداً مالت القلوب بالمحبة إليه، وأجمعت الفرق عليه، كانت مجالس تذكيره الناس عامةً نافعة وللقلوب صادعة».

وقال الحافظ ابن حجر: «الشيخ المحدث الحافظ».

وقال أيضاً: «وكان صاحب عبادة وتهجد...».

وقال ابن عبد الهادي المِبْرد: «الشيخ الإمام، أوحد الأنام، قدوةُ الحفاظ، جامع الشتات والفضائل».

وقال أيضاً: «الفقيه الزاهد البارع الأصولي المفيدُ المحدث».

وقال تلميذه علاء الدين ابن اللحام: «سيدنا وشيخنا الإمام العلامة الأوحدُ الحافظ شيخ الإسلام، مجلِّي المشكلات، وموضح المبهمات...».

وقال أيضاً: «شيخنا الإمام العالم الحافظ بقية السَّلف الكرام،

وحيدُ عصره، وفريدُ دهره شيخ الإسلام زين الدين، أبو الفرج عبد الرحمن بن رجب الحنبلي ـ رحمه الله تعالى وعفا عنه برحمته ـ».

وقال ابن قاضي شهبة: «الشيخ الإمام العلامة الحافظ الزاهد الورع شيخ الحنابلة وفاضلهم، أوحدُ المحدثين...».

وقال السيوطي: «الإمام الحافظ المحدث الفقيه الواعظ».

وقال عنه ابن ناصر الدين الدمشقي: الشيخ الإمام العلامة الزاهد القدوة، البركة الحافظ العمدة الثقة الحجة واعظ المسلمين مفيد المحدثين».

وقال العليمي: «هو الشيخ الإمام، الحبر البحر الهمام، العالم العامل، البدر الكامل، القدوة الورع الزاهد، الحافظ الحجة الثقة، شيخ الإسلام والمسلمين، وزين الملة والدين، واعظ المسلمين، مفيد المحدثين، جمال المصنفين».

وقال ابن العماد: «الشيخ الإمام العالم العلامة، الزاهد القدوة البركة، الحافظ العمدة، الثقة الحجة، الحنبلي المذهب».

وقال ابن العماد أيضاً: «وكان لا يعرف شيئاً من أمور الناس، ولا يتردد إلى أحد من ذوي الولايات، وكان يسكن بالمدرسة السكرية بالقصاعين».

* مؤلفاته:

قال ابن فهد: «له المؤلفات السديدة والمصنفات المفيدة». وقال ابن العماد الحنبلي: «وله مصنفات مفيدة ومؤلفات عديدة». اهـ.

* كتبه في الفقه:

١ ـ الأحاديث والآثار المتزائدة في أن الطلاق الثلاث واحدة.

٢ ـ أحكام الخواتيم وما يتعلق بها، مطبوع.
٣ ـ إزالة الشنعة عن الصلاة بعد النداء يوم الجمعة.
٤ ـ الاستخراج لأحكام الخراج، مطبوع.
٥ ـ الإيضاح والبيان في طلاق كلام الغضبان.
٦ ـ الرد على من اتبع غير المذاهب الأربعة.
٧ ـ القواعد الكبرى في الفروع، مطبوع، وقال عنه الحافظ ابن حجر: «أجاد فيه». وقال ابن قاضي شهبة: «مجلد كبير، وهو نافع من عجائب الدهر حتى أنه استُكثِر عليه، حتى زعم بعضهم أنه وجد قواعد مبددة لشيخ الإسلام ابن تيمية فجمعها، وليس الأمر كذلك بل كان رحمه الله تعالى فوق ذلك».

٨ ـ قاعدة غمّ هلال ذي الحجة، مطبوع.
٩ ـ القول المعذاب في تزويج أمهات أولاد الغياب.
١٠ ـ الكشف والبيان عن حقيقة النذور والأَيْمَان.
١١ ـ منافع الإمام أحمد.
١٢ ـ نزهة الأسماع في مسألة السماع، مطبوع.

* كتبه في علوم القرآن:

١ ـ إعراب البسملة.
٢ ـ إعراب أم الكتاب.
٣ ـ الاستغناء بالقرآن.
٤ ـ تفسير سورة الفاتحة.
٥ ـ الكلام على سورة الإخلاص.
٦ ـ الكلام على سورة النصر.

* **كتبه في الحديث:**

١ ــ اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملإ الأعلى. مطبوع[٢].

٢ ــ جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم. مطبوع.

٣ ــ الحكم الجديرة بالإذاعة من قول النبي ﷺ: «بعثت بالسيف بين يدي الساعة». مطبوع.

٤ ــ شرح حديث: «إن أغبط أوليائي عندي».

٥ ــ شرح حديث شداد بن أوس: «إذا كنز الناس الذهب والفضة».

٦ ــ شرح حديث عمار بن ياسر: «اللهم بعلمك الغيب». مطبوع.

٧ ــ شرح حديث: «ما ذئبان جائعان...» ويسمى أيضاً: «ذم الجاه والمال». مطبوع.

٨ ــ شرح حديث: «لبيك اللَّهم لبيك».

٩ ــ شرح حديث أبي الدرداء: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً...». مطبوع.

١٠ ــ شرح حديث: «يتبع المؤمن ثلاثة». مطبوع.

١١ ــ شرح حديث: «مثل الإسلام».

١٢ ــ شرح جامع الإمام الترمذي ويقع في نحو عشرين مجلداً كما ذكر الحافظ ابن حجر، والموجود منه شرح العلل وهو مطبوع.

١٣ ــ غاية النفع في شرح حديث: «تمثيل المؤمن بخامة الزرع». مطبوع.

١٤ ــ فتح الباري بشرح صحيح البخاري، شرح قطعة منه، قال عنه ابن ناصر الدين الدمشقي: «وشرح من أول صحيح البخاري إلى الجنائز شرحاً نفيساً».

١٥ ــ كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة، وهو شرح حديث: «بدأ الإسلام غريباً...». مطبوع.
١٦ ــ المحجة في سير الدلجة، وهو شرح حديث: «لن ينجي أحداً منكم عمله». مطبوع.
١٧ ــ نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عباس وهو شرح حديث: «احفظ الله يحفظك...» (وهو كتابنا هذا).

* كتبه في التاريخ:

١ ــ الذيل على طبقات الحنابلة. مطبوع.
٢ ــ سيرة عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز. مطبوع.
٣ ــ مختصر سيرة عمر بن عبد العزيز. مطبوع.
٤ ــ وقعة بدر.

* كتبه في الوعظ والفضائل:

١ ــ استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس. مطبوع.
٢ ــ الاستيطان فيما يعتصم به العبد من الشيطان.
٣ ــ الإلمام في فضائل بيت الله الحرام.
٤ ــ أهوال القبور. مطبوع.
٥ ــ البشارة العظمى في أن حظَّ المؤمن من النار الحمى.
٦ ــ بيان فضل علم السلف على علم الخلف. مطبوع.
٧ ــ التخويف من النار. مطبوع.
٨ ــ تسلية نفوس النساء والرجال عن فقد الأطفال.

٩ ــ الذل والانكسار للعزيز الجبار طبع بعنوان: «الخشوع في الصلاة».

١٠ ــ ذم الخمر.

١١ ــ صفة النار وصفة الجنة.

١٢ ــ الفرق بين النصيحة والتعيير. مطبوع.

١٣ ــ فضائل الشام.

١٤ ــ كلمة الإخلاص وتحقيق معناها. مطبوع.

١٥ ــ لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف. مطبوع. قال عنه الحافظ ابن حجر: «واللطائف في وظائف الأيام بطريق الوعظ، وفيه فوائد».

* وفاته:

يقال: إن هذا الإمام جاء إلى حفّار فقال له: احفر لي هنا لحداً وأشار إلى بقعةٍ فقال الحفّار: فحفرت له، فنزل فيه فأعجبه واضطجع فيه، وقال: هذا جيد. فمات بعد أيام فدفن فيه وذلك في شهر رجب من سنة ٧٩٥هـ. رحمه الله رحمة واسعة.

* مصادر ترجمته:

١ ــ إنباء الغمر بأبناء العمر (١/٤٦٠) للحافظ ابن حجر.

٢ ــ والدرر الكامنة (٢/٣٢١) له أيضاً.

٣ ــ الرد الوافر (ص ١٠٦) لابن ناصر الدين الدمشقي.

٤ ــ لحظ الألحاظ (ص ١٨٠) لابن فهد المكي.

٥ ــ طبقات الحفاظ (ص ٥٣٦) للسيوطي.

٦ ــ الشهادة الزكية (ص ٤٩) للكرمي.

٧ ــ شذرات الذهب (٦/٣٣٩) لابن العماد الحنبلي.

٨ ــ البدر الطالع (١/٣٢٨) للشوكاني.
٩ ــ الجوهر المنضد (ص ٤٦) لابن عبد الهادي المبرد[1].
١٠ ــ السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة (ص ١١٧ ــ ١١٨ ــ مصورة مكتبة خدابخش بتنه بالهند) لابن حميد النجدي ثم المكي.
١١ ــ هدية العارفين (١/٥٢٧، ٥٢٨) للبغدادي.
١٢ ــ الدارس في أخبار المدارس (٢/٧٦) للنعيمي.
١٣ ــ فهرس الفهارس (٢/٦٣٦) للكتاني.
١٤ ــ الأعلام (٤/٦٧) للزركلي.
١٥ ــ معجم المؤلفين (٥/١١٨) لرضا كحالة.
١٦ ــ العلل في الحديث (ص ٢٢٧ ــ ٢٥٦) للدكتور همام سعيد.

• • •

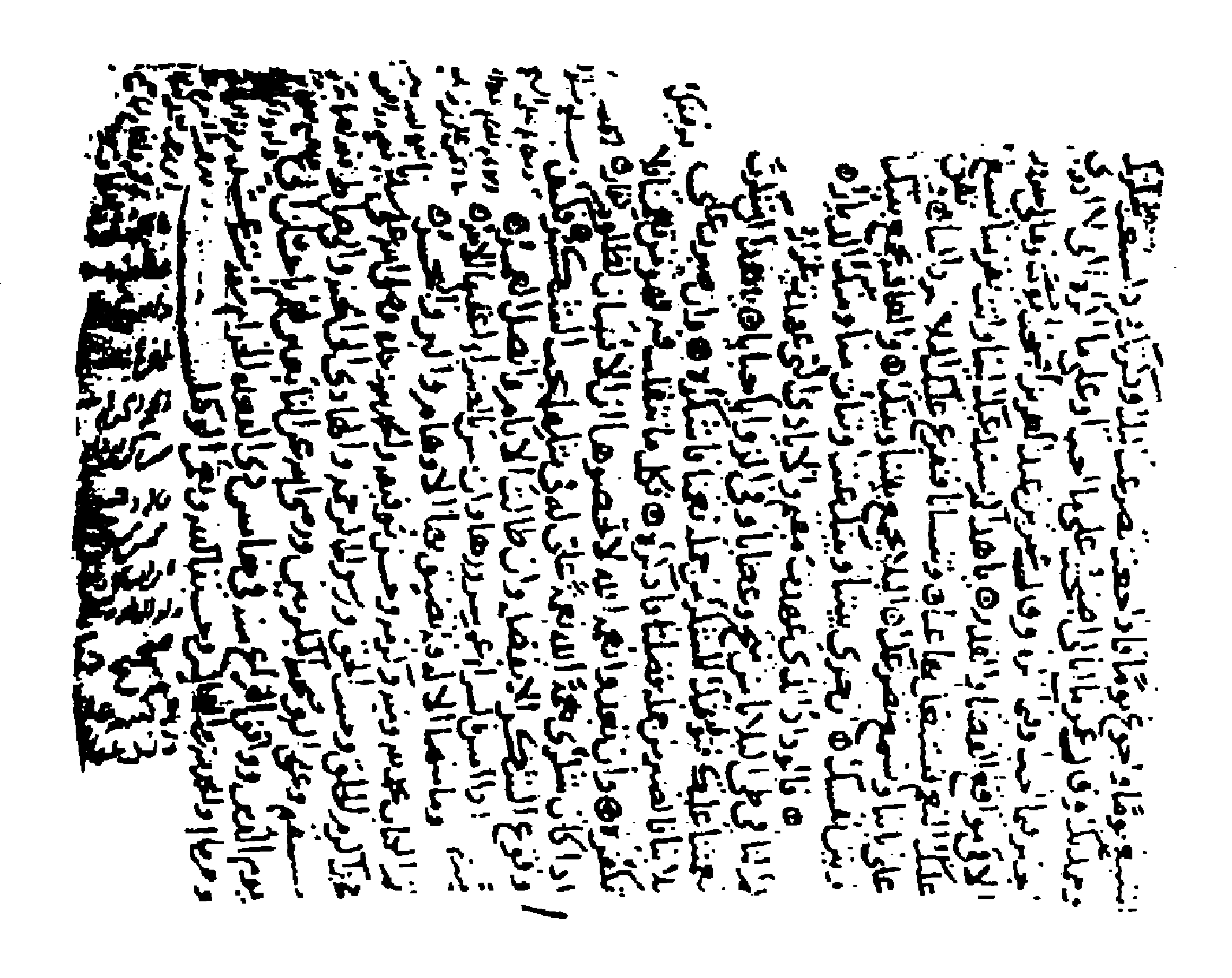
---

(١) طبع هذا الكتاب بتحقيق الأخ الدكتور عبد الرحمن العثيمين حفظه المولى ورعاه.



صُوَر المخطُوطَات

الورقة الأولى من نسخة جامعة برنستون



الورقة الأخيرة من نسخة جامعة برنستون

الورقة الأولى من نسخة شستربتي

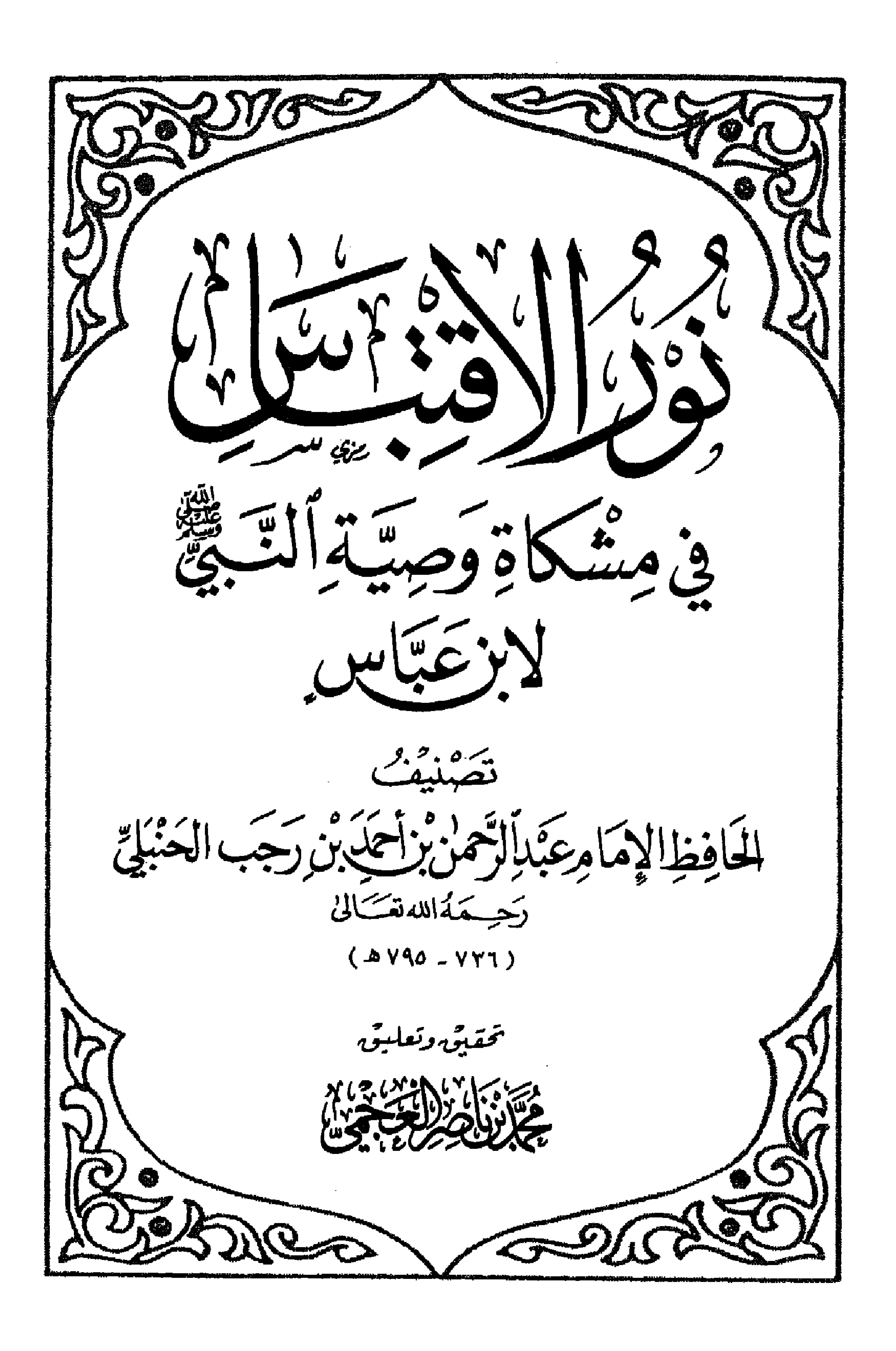
الورقة الأخيرة من نسخة شستربتي

الورقة الأولى من نسخة جامعة ييل

الورقة الأخيرة من نسخة جامعة ييل

الورقة الأولى من نسخة الرياض

الورقة الأخيرة من نسخة الرياض



نور الاقتباس

في مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عباس

تصنيف

الحافظ الإمام عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي

رحمه الله تعالى

(٧٣٦ - ٧٩٥ هـ)

تحقيق وتعليق

محمد بن ناصر العجمي

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله ربّ العالمين حَمداً كَثيراً طَيِّباً مُباركاً فيه كما يُحبُّ ربنا ويرضى، وكما ينبغي لكرم وجهه وعزِّ جلاله، وصلَّى الله على محمد النبيِّ الأميِّ وآله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً.

خَرَّجَ[1] الإمام أحمد من حديث حَنَش الصَّنعاني عن ابن عباس قال: كنت رديف النبي ﷺ فقال: «يا غُلَام ـ أَوْ يا غُلَيِّم ـ أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِنّ؟» فَقُلْتُ: بلى. فَقَالَ: «احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ الله تجِدْهُ أَمَامَك، تَعَرَّفْ إلى الله[2] في الرَّخاءِ يَعْرِفْكَ في الشِّدَّةِ. وإذا سَأَلْتَ فاسْأَلْ الله، وإذا اسْتَعَنْتَ فاستعِنْ بالله، قَدْ جَفَّ القَلَمُ بِمَا هو كَائِنٌ، فَلَو أنَّ الخَلْقَ كُلَّهُم جَميعاً أَرَادوا أن يَنْفَعُوكَ بشيءٍ لَمْ يقضه اللَّهُ[3] لَمْ يَقْدِرُوا عليه، وإنْ أرادوا أن يَضُرُّوكَ بشيءٍ لم يَكْتُبْهُ اللَّهُ عليك لم يقدروا عليه. واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وأنَّ النصرَ مع الصبر، وأنَّ الفرجَ مع الكرب، وأنَّ مع العُسْرِ يُسْراً».

هكذا ساقه من طريق حَنَش مع إسنادين آخرَيْنِ منقطِعَيْن، وفي السياق أنَّه لا يحفظ حديث بعضهم من بعض.

---

(١) وفي (ض) و (ط): «أخرج». (٢) وفي المسند: «إليه».

(٣) وفي (ض): «لم يقضه»، وفي المسند: «لم يكتبه الله عليك».

وخرَّجه أيضاً من طريق حَنَش وحده مختصراً ولفظه:

«يَا غُلَامُ، إني مُحدِثُك حَديثاً: احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إذا سَأَلْتَ فاسْأَلْ الله، وإذا اسْتَعَنْتَ فاستَعِنْ بالله، فقد رُفِعَتِ الأقْلَامُ وَجَفَّتِ الكُتُبُ، فَلَوْ جَاءتِ الأُمَّةُ يَنْفَعُوكَ بِشَيءٍ لم يَكْتبه اللَّهُ[1] لَكَ لَمَا اسْتَطَاعَتْ وَلَوْ[2] أَرَادَتْ أَنْ تَضُرَّكَ بشيءٍ لم يَكْتُبْهُ اللَّهُ لك لما[3] اسْتَطَاعَتْ».

وخرَّجه الترمذي بنحو هذا السياق المختصر، ولفظه:

«إنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ الله يَحفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إذا سَأَلْتَ فاسْأَلْ الله، وإذا اسْتَعَنْتَ فاستَعِن بالله، واعلم أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجتَمَعَتْ عَلَى أن يَنْفَعُوكَ بشيءٍ لم يَنْفَعُوكَ إلَّا بشيءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لكَ، وإنِ اجتَمَعُوا على أن يَضُرُّوكَ بِشيءٍ لم يَضُرُّوكَ إلَّا بشيءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ، وجَفَّتِ الصُّحُفُ».

وقال: «حديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ».

وقال الحَافِظ أبو عبد الله ابن منده: «لهذا الحديث طرق عن ابن عباس وهذا أصحها». قال: «وهذا إسناد مشهور، ورواته ثقات».

قلت: قد روي هذا الحديث عن ابن عباس من رواية جماعة. فمنهم: علي ابنه، وعطاء، وعكرمة، ومن رواية عمر مولى غفرة عنه، وعبد الملك بن عمير وابن أبي مليكة عن

---

(١) وفي المسند: «عز وجل».

(٢) وفي المسند: «فلو».

(٣) وفي المسند: «ما».

ابن عباس. وقيل: إنهما لم يسمعا منه، وفي أسانيدها جميعها [كلها][1] مقال، وفي ألفاظها بعض الزيادة والنقص.

وروي عن النبي ﷺ أنه وصّى بذلك ابن عباس من حديث علي بن أبي طالب وأبي سعيد الخدري، وسهل بن سعد، وغيرهم من الصحابة، وفي أسانيدها أيضاً مقال. وذكر العقيلي أن أسانيد الحديث كلها ليّنة، وبعضها أصلح من بعض.

قلت: وأجود أسانيده من رواية حَنَش عن ابن عباس التي ذكرناها، وهو إسناد حسن لا بأس به.

وقد استوفينا ذكر طرق الحديث مع الكلام عليها في كتاب «شرح الترمذي»[2].

---

(١) من (ض) و (ط).

(٢) حديث ابن عباس له عدة طرق وهذه الطرق في ألفاظها بعض الاختلاف كما ذكر المصنف ــ رحمه الله ــ وسأذكر كل طريق مع لفظها وهاك إياها:

١ ــ من طريق حنش الصنعاني عن ابن عباس، قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً، فقال: «يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلاَّ بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيءٍ لم يضروك إلاَّ بشيءٍ قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف».

أخرجه أحمد (١/٢٩٣) وابن وهب في كتاب القدر (٢٨) والترمذي (٢٥١٦) واللفظ له وأبو يعلى في مسنده (٢٥٥٦) وابن السني في عمل اليوم والليلة (٤٢٥) والبيهقي في شعب الإيمان (١/١٤٨، ١٤٩) وإسناده حسن، وأخرجه الطبراني في الدعاء (٤٢) بمثل هذا اللفظ إلاَّ أنه من طريق عبد الله بن صالح وهو صدوق يغلط كثيراً، وأخرجه أحمد (١/٣٠٧) والبيهقي في شعب الإيمان (١/ق ١٩٨/أ) وفي الأسماء والصفات (ص ٧٥، =

. . . .

---

٧٦) وفي الاعتقاد (ص ١٤٠) واللالكائي في أصول السنة (٦١٣/٤، ٦١٤) من طريق حنش أيضاً ولفظه: عن ابن عباس قال: كنت رديف النبي ﷺ فقال: «يا غلام أو يا غليم ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن»، فقلت: بلى، فقال: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إليه في الرخاء يعرفك في الشدة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، قد جف القلم بما هو كائن، فلو أن الخلق كلهم جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشيءٍ لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، وإن أرادوا أن يضروك بشيءٍ لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً» وإسناده حسن.

٢ ــ من طريق إسماعيل بن عياش عن عمر بن عبد الله مولى غفرة عن عكرمة عن ابن عباس قال: كنت رديف رسول الله ﷺ فقال: «يا غلام ألا أعلمك شيئاً ينفعك الله به؟» قلت: بلى يا رسول الله قال: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، فقد جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة، فلو جهد الخلائق أن ينفعوك بشيءٍ لم يكتب الله لك لم يقدروا على ذلك، ولو جهد الخلائق أن يضروك بشيءٍ لم يكتبه الله عليك لم يقدروا على ذلك».

أخرجه الطبراني في الكبير (٢٢٣/١١) وإسناده ضعيف فيه إسماعيل بن عياش وهو ضعيف الحديث عن غير الشاميين وهذه منها حيث روى عن عمر مولى غفرة المدني وهو ضعيف أيضاً.

٣ ــ من طريق ابن أبي مليكة عن ابن عباس قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا غلام احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف بالله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، واعلم أن الخلائق لو اجتمعوا على أن يعطوك شيئاً لم يرد الله أن يعطيك لم يقدروا عليه، أو يصرفوا عنك شيئاً أراد أن يصيبك به لم يقدروا على ذلك، فإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن =

= النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً، واعلم أن القلم قد جرى بما هو كائن».

أخرجه العقيلي (٣/٣٩٧، ٣٩٨) والطبراني في الكبير (١١/١٢٣) وفي الدعاء (٤١) والحاكم (٣/٥٤٢) والبيهقي في الآداب (١٠٧٣) والقضاعي في مسند الشهاب (٧٤٥) وفي إسناده عيسى بن محمد القُرشي، قال عنه أبو حاتم: «ليس بالقوي». وقال الذهبي: «عيسى ليس بمعتمد».

٤ ــ من طريق عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يا ابن عباس احفظ الله يحفظك، واحفظ الله تجده أمامك، وتعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأن الخلائق لو اجتمعوا على أن يعطوك شيئاً لم يرد الله أن يعطيكه لم يقدروا على ذلك، أو أن يصرفوا عنك شيئاً أراد الله أن يعطيكه لم يقدروا على ذلك، وأن قد جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة، فإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله فإن النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسراً».

أخرجه عبد بن حميد كما في المنتخب من مسنده (٦٣٤) وإسناده ضعيف فيه المثنى بن الصباح ضعيف كما في التقريب وكذا في إسناده محمد بن عبد الرحمن بن أبي الجدعاني ضعفه أكثر الأئمة، وضعفه الحافظ ابن حجر في الأمالي على الأذكار كما في الفتوحات الربانية (١/٣٨٤).

وله طريق أخرى عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس، قال: بينا أنا رديف رسول الله ﷺ إذ قال: «احفظ مني يا غلام: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. رفعت الأقلام، وجفت الصحف، والذي نفسي بيده لو جهدت الأمة ليضروك بغير ما كتب الله لك ما قدرت عليه، أو ما استطاعت».

أخرجها ابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة (١/ق ١٣٣/ب) والعقيلي في الضعفاء (٣/٥٣) والآجري في الشريعة (ص ١٩٨) والطبراني في الكبير (١١/١٧٨) مختصراً، وفي إسنادها عبد الواحد بن سليم ضعيف كما في التقريب. =

=

٥ ــ من طريق عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن رسول الله ﷺ قال له: «يا غلام ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟ احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، جف القلم بما هو كائن. ولو اجتمع الخلق على أن يعطوك شيئاً لم يكتبه الله عز وجل لك لم يقدروا عليه، وعلى أن يمنعوك شيئاً كتبه الله عز وجل لك لم يقدروا عليه، فاعمل لله تعالى بالرضا في اليقين، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً».

أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/٣١٤) وإسناده ضعيف؛ وذلك لأن فيه رجلين لم يسميا.

٦ ــ من طريق عبد الملك بن عمير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أهدى إلي النبي ﷺ بغلة أهداها له كسرى فركبها بحبل من شعر ثم أردفني خلفه ثم سار بي ملياً ثم التفت فقال: «يا غلام» قلت: لبيك يا رسول الله قال: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، قد مضى القلم بما هو كائن فلو جهد الناس أن ينفعوك بما لم يقضه الله لك، لم يقدروا عليه، ولو جهد الناس أن يضروك بما لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، فإن استطعت أن تعمل بالصبر مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع فاصبر فإن في الصبر على ما تكرهه خيراً كثيراً، واعلم أن مع الصبر النصر، واعلم أن مع الكرب الفرج واعلم أن مع العسر اليسر».

أخرجه الحاكم (٣/٥٤١) وإسناده ضعيف جداً؛ فيه ميمون القداح قال الذهبي في تلخيصه على المستدرك: «قلت: لأن القداح قال أبو حاتم: متروك والآخر ــ يعني شهاب ابن خراش ــ مختلف فيه وعبد الملك ــ يعني ابن عمير ــ لم يسمع من ابن عباس فيما أرى».

٧ ــ من طريق الحجاج بن الفُرافِصَة عن ابن عباس ومن طريق همام بن يحيى البصري، أخرجه أحمد (١/٣٠٧) بنفس لفظ الطريق رقم (١) وهذان إسنادان منقطعان فهما لم يدركا ابن عباس.

=

....

= وأما حديث علي بن أبي طالب: فأخرجه القاضي التنوخي في الفرج بعد الشدة (١/١١٢) وإسناده ضعيف جداً؛ فيه علي بن أبي علي اللهبي متروك كما هو في ترجمته من الميزان (٣/١٤٧).

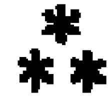
وحديث سهل بن سعد أخرجه ابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة (١/ق ١٣٤/أ) ومن طريقه التنوخي في الفرج بعد الشدة (١/١١٥) وإسناده ضعيف؛ فيه عبد الرحمن بن عبد الملك بن شيبة صدوق يخطىء، ومحمد بن إبراهيم بن المطلب لم يوثقه سوى ابن حبان.

وأما حديث أبي سعيد الخدري فأخرجه أبو يعلى في مسنده (١٠٩٩) وفي معجم الشيوخ (٩٦) وابن عدي في الكامل (٧/٢٦٨٣) والآجري في الشريعة (ص ١٩٩) واللالكائي في أصول السنة (٤/٦١٤) والرافعي في التدوين (١/٤٥) والخطيب في التاريخ (١٤/١٢٥) ولفظه: عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ لعبد الله بن عباس: «يا غلام، أو يا غليم، ألا أعلمك شيئاً، لعل الله أن ينفعك به؟ احفظ الله يحفظك، احفظ الله يكن أمامك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك عند الشدة، جف القلم بما هو كائن، فلو أن الناس اجتمعوا جميعاً على أن يعطوك شيئاً لم يعطك الله عز وجل لم يقدروا عليه، ولو أن الناس اجتمعوا جميعاً على أن يمنعوك شيئاً قدره الله عز وجل لك وكتبه لك ما استطاعوا، واعلم أن لكل شدة رخاءً، وأن مع العسر يسراً. وإن مع العسر يسراً».

وإسناده ضعيف جداً؛ فيه يحيى بن ميمون بن عطاء وهو متروك، وعلي بن زيد بن جدعان ضعيف كما في التقريب.

وورد كذلك من حديث عبد الله بن جعفر أن النبي ﷺ أردفه فقال: «يا فتى ألا أهب لك ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟ احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، وإذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أنه قد جف القلم بما هو كائن واعلم بأن الخلائق لو أرادوك بشيء لم يردك الله به لم يقدروا عليه، واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسراً». =

ومقصودنا ههنا الكلام على معنى الحديث وشرح ألفاظه، فإنه تضمن وصايا عظيمة وقواعد كلّيّة من أهم أمور الدين وأجلّها، حتى قال الإمام أبو الفرج في كتابه «صيد الخاطر»: «تدبرت هذا الحديث فأدهشني وكدت أطيش»، ثم قال: «فوا أسفاً من الجهل بهذا الحديث، وقلّة الفهم لمعناه».



= أخرجه ابن أبي عاصم في السنة(٣١٥) والطبراني كما في المجمع (١٨٩/٧، ١٩٠) وقال الهيثمي: «وفيه علي بن أبي القرشي وهو ضعيف». اهـ.

فقوله ﷺ: «احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ»

يعني احْفَظ حدودَ الله وحقوقَه وأوامرَه ونواهيَه، وحِفْظُ ذلك هو الوقوف عند أوامره بالامتثال، وعند نواهيه بالاجتناب، وعند حدوده فلا يتجاوز ولا يتعدى ما أُمِرَ به إلى ما نُهِيَ عنه، فدخل في ذلك فعلُ الواجبات جميعها وتركُ المحرمات كلها، كما في حديث أبي ثعلبةَ المرفوع:

«إنَّ الله فَرَضَ فَرَائِضَ فَلاَ تُضَيِّعُوهَا، وَحَرَّمَ حُرُمَاتٍ فَلاَ تَنْتَهِكُوها، وَحَدَّ حُدُوداً فلا تَعْتَدُوهَا»[1].

وذلك كله يدخل في حفظ حدود الله كما ذكره الله في قوله:

﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ . . .﴾ الآية، [التوبة: ١١٢].

وقال تعالى:

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٢، ٣٣].

---

(١) أخرجه الدارقطني (١٨٣/٤، ١٨٤) ومحمد بن إسحاق المقري في معجم شيوخه (١٥٤ ب ـ نسخة دار الكتب المصرية) والطبراني في الكبير (٢٢١/٢٢، ٢٢٢) والبيهقي (١٢/١٠، ١٣) والخطيب في الفقيه والمتفقه (٩/٢)، قال المصنف ـ رحمه الله ـ في جامع العلوم والحكم (ص ٢٤٢): «وله علتان: إحداهما: أن مكحولاً لم يصح له السماع عن أبي ثعلبة، =

وفُسِّرَ الحفيظ ههُنا بالحافظَ لأوامر الله، وفُسِّرَ بالحافظ لذنوبه حتى يرجع عنها، وكلاهما يدخل في الآية.

ومن حفظ وصية الله لعباده وامتثلها فهو داخل أيضاً، والكل يرجع إلى معنى واحد.

وقد ورد في بعض ألفاظ حديث يوم المزيد في الجنة:

«إنَّ الله تعالى يقول لأَهْلِ الجَنَّة، إذا اسْتَدْعَاهُمْ إلى زِيَارَتِهِ وَكَشَفَ لهم الحُجُبَ: مَرْحَباً بِعِبَادِيَ الذينَ حَفِظُوا وَصِيَّتِي، وَرَعَوْا عَهْدِي، وخَافُوني بالغَيْبِ، وكَانُوا مِنِّي عَلَى كُلِّ حَالٍ مُشْفِقِينَ»[1].

فأمره ﷺ لابن عباس بحفظ الله يدخل فيه[2] هذا كله.

ومن أعظم ما يجب حفظه من المأمورات الصلواتُ الخمس. قال تعالى:

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤].

= كذلك قال أبو مسهر الدمشقي وأبو نُعَيْم وغيرهما.

والثانية: أنه اختلف في رفعه ووقفه على أبي ثعلبة، ورواه بعضهم عن مكحول من قوله لكن قال الدارقطني: الأشبه بالصواب المرفوع، قال: وهو أشهر». اهـ. فعلى هذا يكون الحديث ضعيفاً.

(١) رواه ابن أبي الدنيا وأبو نعيم عن محمد بن علي بن الحسين ــ رضي الله عنهما ــ هكذا معضلاً ورفعه منكر. قال ذلك المنذري في الترغيب والترهيب (١٠١٨/٤).

(٢) وفي (ش): «في».

وقال النبي ﷺ:

«مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا... كَانَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عهدٌ[1] أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ»[2] الحديث.

وفي حديث آخر:

«مَنْ حَافَظَ عَلَيْهِنَّ كُنَّ له نُوراً وَبُرهاناً وَنَجَاةً يَومَ القِيَامَةِ»[3] الحديث.

وكذلك الطهارة فإنها مفتاح الصلاة، وقال النبي ﷺ: «لَا يُحَافِظُ عَلَى الوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ»[4].

---

(١) وفي (ب) و (ط): «عهداً». وهو خطأ.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (١/١٢٣) وأحمد (٥/٣١٥، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٩، ٣٢٢) وأبو داود (٤٢٥) والنسائي (١/٢٣٠) وابن ماجه (١٤٠١) وابن حبان (٢٥٢)، (٢٥٣) والطبراني في الأوسط كما في النكت الظراف لابن حجر (٤/٢٢٥) من طرق وصححه ابن عبد البر كما في مختصر سنن أبي داود للمنذري (٢/١٢٣)، وليس عندهم قوله: «من حافظ عليها...» وإنما هو: «خمس صلوات كتبهنَّ الله...» الحديث بمثله، ولمزيد معرفة صحة الحديث وطرقه تراجع رسالة «إعلام ذوي الرشاد بتصحيح حديث خمس صلوات كتبهنَّ الله على العباد»، لعطاء عبد اللطيف.

(٣) أخرجه أحمد (٢/١٦٩) وعبد بن حميد كما في المنتخب من مسنده (٣٥٣) والطحاوي في مشكل الآثار (٤/٢٢٩) وابن حبان (٢٥٤) والطبراني في الأوسط كما في مجمع البحرين (ق ٢٦/أ) والآجري في الشريعة (ص ١٣٥) وفي إسناده عيسى بن هلال لم يوثقه غير ابن حبان كعادته في التوثيق!.

(٤) أخرجه أحمد (٥/٢٨٢) والدارمي (١/١٦٨) وابن حبان (١٦٤) والطبراني في الكبير (٢/٩٨) وإسناده حسن، وله طريق أخرى: أخرجها أحمد (٥/٢٨٠) بإسناد لا بأس به في المتابعات.

وله كذلك طريق أخرى أيضاً: أخرجها أحمد (٥/٢٧٦، ٢٧٧، ٢٨٢) وابن =

فإن العبد تنتقض طهارتُه ولا يعلم بذلك إلاَّ الله، فالمحافظة على الوضوء للصلاة دليل على ثبوت الإيمان في القلب[1].

ومما أمر الله تعالى بحفظه الأَيْمانَ لمّا ذكر كفارة اليمين قال:

﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ﴾ [المائدة: ٨٩].

فإن الأَيمان كثيراً ما تقع من الناس وموجباتها مختلفة. فتارة يجب فيها كفارة يمين وتارة يجب فيها كفارة مُغلّظة، وتارة يلزم بها المحلوف عليه من طلاق ونحوه. فمن حفظ أيمانَهُ دلّ على دخول الإيمان في قلبه.

وكان السلف كثيراً يحافظون على الأيمان، فمنهم من كان لا يحلف بالله ألبتة، ومنهم من كان يتورع حتى يُكَفِّرَ عما شكّ في الحَلِف فيه. ووصى الإمام أحمد عند موته أن يُخْرَجَ عنه كفارةُ يمين، وقال: أظن أني حنثت في يمين حلفتها.

وقد روي عن أيوب ــ عليه السلام ــ كان إذا مر باثنين

= أبي شيبة في المصنف (١/٥، ٦) والطيالسي في مسنده (٩٩٦) وابن ماجه (٢٧٧) والدارمي (١/١٦٨) والطبراني في الصغير (٢/٨٨) والحاكم (١/١٣٠) والبيهقي (١/٤٥٧) والخطيب في التاريخ (١/٢٩٣) والبغوي في شرح السنة (١/٣٢٧) وقال: «منقطع» وبيّن سبب الانقطاع البوصيري فقال في مصباح الزجاجة (١/٤١): «هذا الحديث رجاله ثقات أثبات إلاَّ أنه منقطع بين سالم وثوبان فإنه لم يسمع منه...» فالحديث بهذه الطرق صحيح.

(١) من قوله: «فإن العبد تنتقض...» إلى قوله: «ثبوت الإيمان...» ليس في (ط).

يحلفان بالله ذهب فكفَّر عنهما يمينَيهما لئلا يأثمان وهما لا يشعران.

ولهذا لما حلف على ضرب امرأته مائة جلدة، أفتاه الله بالرخصة لحفظه لأَيمانه وأَيمان غيره.

وقد اختلف العلماء هل تتعدى الرخصة إلى غيره أم لا؟.

وقال يزيد بن أبي حبيب: بلغني أن من حملة العرش من يسيل من عينيه أمثالُ الأنهار من البُكاء، فإذا رفع رأسه قال: سبحانك ما تُخشى حق خشيتك. فيقول الله تعالى: لكن الذين يحلفون باسمي كاذبين لا يعلمون ذلك.

وقد ورد التشديد العظيم في الحلف الكاذب، ولا يصدر كثرة الحلف بالله إلاَّ من الجهل بالله، وقلة هيبته في الصدور.

ومما يلزم المؤمنَ حفظُه رأسَه وبطنَه، كما في حديث ابن مسعود المرفوع: «الاسْتِحْيَاءُ مِنَ الله حَقَّ الحَيَاءِ: أن يَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَيَحْفَظَ البَطْنَ وَمَا حَوَى». خرَّجه الإمام أحمد والترمذي[1].

---

(١) أخرجه أحمد (١/٣٨٧) والترمذي (٢٤٥٨) والبيهقي في الآداب (١١٥٥) وفي الأربعين الصغرى (٢٧) والخطيب في تلخيص المتشابه (١/٤٨٦، ٤٨٧) والبغوي في شرح السنة (١٤/٢٣٤) وإسناده ضعيف؛ فيه الصباح بن محمد بن أبي حازم البجلي الأحمسي ضعيف كما في التقريب.
وله طريق أخرى: أخرجها الطبراني في الكبير (١٠/١٨٨) وفي الصغير (١/١٧٧) وأبو نعيم في الحلية (٤/٢٠٩) وإسناده واهٍ منقطع؛ فإن في هذه الطريق مجاعة بن الزبير ضعفه الدارقطني، وعبد الله بن رُشيْد قال عنه =

وحفظ الرأس وما وعى يدخل فيه حفظ السمع والبصر واللسان من المحرمات[1]. وحفظ البطن وما حوى يتضمن حفظ القلب عن الإصرار على محرم. وقد جمع الله ذلك كله في قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾

[الإسراء: ٣٦].

ويدخل في حفظ البطن وما حوى: حفظه من إدخال الحرام إليه من المأكولات والمشروبات.

ومما يجب حفظه من المنهيات: حفظ اللسان والفرج. وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ:

«مَنْ حَفِظَ مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بين رِجْلَيْهِ دَخَلَ الجَنَّةَ». خرَّجه الحاكم[2].

= البيهقي في السنن الكبرى (٦/١٠٨): «لا يحتج به» وقال الذهبي في المغني (١/٣٣٨): «ليس بقوي، وفيه جهالة» وذكره الحافظ العراقي في الذيل على الميزان (ص ٣٠٢) وذكر قول البيهقي فيه ولم يزد عليه شيئاً، كما أن في الإسناد شيخ الطبراني ـ السَّري بن سهل ـ قال عنه ابن عدي في الكامل (٣/١٢٩٨): «يسرق الحديث» أما الانقطاع فإن فيه أبا عبيدة بن عبد الله بن مسعود لم يسمع من أبيه شيئاً، فلا يتقوى الحديث بهذه الطريق.

(١) سقطت هذه العبارة من (ط).

(٢) أخرجه الحاكم (٤/٣٥٧) وصححه ووافقه الذهبي وليس كما قالا؛ فإن فيه أبا واقد صالح بن محمد الليثي الصغير ضعيف كما في التقريب، وأخرجه ابن حبان (٢٥٤٦) والحاكم (٤/٣٥٧) من حديث أبي هريرة مرفوعاً ولفظه: «ومن وقي شر ما بين لحييه وما بين رجليه دخل الجنة» وفي إسناده أبو خالد =

وخرَّجه البخاري من حديث سهل بن سعد عن النبي ﷺ ولفظه: «مَنْ يَضْمَنْ لِيَ مَا بَيْنَ لَحيَيْهِ ورِجْلَيْهِ، أَضْمَن لَهُ الجَنَّة»[1].

وفي «مسند الإمام أحمد» عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «مَنْ حَفِظَ مَا بَيْنَ فُقْمَيْهِ وفَرْجِهِ دَخَلَ الجَنَّة»[2].

وقد أمر الله تعالى بحفظ الفروج خاصة، ومدح الحافظين لها. قال تعالى:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ . . .﴾ الآية، [النور: ٣٠].

[و][3] قال تعالى:

﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وقال تعالى:

= الأحمر ـ سليمان بن حبان ـ صدوق يخطىء كما في التقريب، ويشهد للحديث ما بعده.

(١) أخرجه البخاري (١١/٣٠٨ ـ فتح).

(٢) أخرجه أحمد (٤/٣٩٨) والبخاري في التاريخ الكبير (٧/٥٤) والحاكم (٤/٣٥٨) والقضاعي في مسند الشهاب (٥٤٥) وإسناده ضعيف؛ فيه عقيل مولى ابن عباس ذكره البخاري في التاريخ (٧/٥٤) وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٦/٢١٨) ولم يذكرا فيه جرحاً ولا تعديلاً ويشهد له ما قبله وما أخرجه الطبراني في الكبير (١/٢٩٠) من حديث أبي رافع بإسناد جيد كما قال الحافظ في الفتح (١١/٣٠٩) والهيثمي في المجمع (١٠/٣٠٠).
قوله: «فُقْمَيه» قال ابن الأثير في النهاية (٣/٤٦٥): «الفُقْم بالضم والفتح: اللَّحى، يُريد من حَفظ لسانَه وفَرْجَه».

(٣) ما بين المعكوفين من (ش) و(ض) و(ل) و(ط).

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ... ﴾ الآية، [المؤمنون: ٥، ٦].

وقد روي عن أبي إدريس الخولاني: أن أول ما وصى الله آدم عند إهباطه إلى الأرض بحفظ فرجه، وأن لا يضعه إلاَّ في حلال.

• • •

وقوله ﷺ: «يَحْفَظْكَ»

يعني أن من حفظ حدود الله وراعى حقوقه حَفِظه الله فإن الجزاء من جنس العمل، كما قال تعالى:

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

وقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقال: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وحِفْظُ الله لعبده يتضمن نوعين:

أحدهما: حفظه له في مصالح دنياه، كحفظه في بدنه وولده وأهله وماله.

وفي حديث ابن عمر قال: لم يكن رسول الله ﷺ يَدَعُ هؤلاء الدعوات حين يمسي وحين يصبح:

«اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ العَافِيَةَ في الدُّنْيَا والآخِرَة، اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ العَفْوَ والعَافِيَةَ في دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي وَآمِنْ رَوْعَاتِي، واحْفَظْنِي من بَيْنِ يدَيَّ ومِن خَلْفِي، وعَنْ يَمِينِي وعن شِمَالِي، ومن فَوْقِي وأعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَن أُغْتَالَ من تَحْتِي».

خرَّجه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه(1).

وهذا الدعاء منتزع من قوله عز وجل:

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ . . .﴾ الآية، [الرعد: ١١].

قال ابن عباس: هم الملائكة يحفظونه بأمر الله، فإذا جاء القدر خلّوا عنه(2).

وقال علي رضي الله عنه: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يُقدَّر، فإذا جاء القدر خلّيا بينه وبينه، وإن الأجلَ جُنَّةٌ حصينة.

وقال مجاهد: ما من عبد إلاَّ له مَلك يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوامّ، فما من شيء يأتيه إلاَّ قال: وراءك. إلاَّ شيئاً قد أذن الله فيه فيصيبه(3).

ومن حفظ الله للعبد: أن يحفظه في صحة بدنه وقوته وعقله وماله. قال بعض السلف: العالم لا يخرف. وقال بعضهم: من جمع القرآن مُتِّع بعقله. وتأوَّل بعضهم على ذلك قوله تعالى:

---

(1) أخرجه أحمد (٢/ ٢٥) وأبو داود (٥٠٧٤) والنسائي (٨/ ٢٨٢) وفي عمل اليوم والليلة (٥٦٦) وابن ماجه (٣٨٧١) وابن حبان (٢٣٥٦) والحاكم (١/ ٥١٧) وصححه ووافقه الذهبي وهو كما قالا.

(2) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٣/ ٧٧) وإسناده ضعيف؛ فيه سماك بن حرب وفي سماعه من عكرمة مولى ابن عباس اضطراب كما في ترجمته من التهذيب وغيره من كتب التراجم.

(3) أخرجه ابن جرير (١٣/ ٧٨) وإسناده ضعيف؛ فيه ليث بن أبي سليم ضعيف لاختلاطه.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾

[التين: ٥، ٦].

وكان أبو الطيب الطبري قد جاوز المائة سنة وهو ممتّع بعقله وقوته، فوثب يوماً من سفينة كان فيها إلى الأرض وثبة شديدة، فعوتب على ذلك، فقال: هذه جوارح حفظناها عن المعاصي في الصغر، فحفظها الله علينا في الكبر[1].

وعكس هذا أن الجُنيد رأى شيخاً يسألُ الناس، فقال: إن هذا ضيَّع اللَّهَ في صِغره، فضيَّعهُ اللَّهُ في كِبَره.

وقد يحفظ الله العبد بصلاحه في ولده وولد ولده، كما قيل في قوله تعالى:

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢].

إنهما حُفظا بصلاح أبيهما.

وقال محمد بن المنكدر: إن الله ليحفظ بالرجل الصالح وَلَدَه وولد ولده وقريته التي هو فيها، والدُّويرات التي حولها، فما يزالون في حفظ من الله وستر.

وقال ابن المسيب لابنه: يا بني! [إني][2] لأزيدن في صلاتي من أجلك، رجاء أن أحفظ فيك. وتلا هذه الآية:

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢].

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير (١٢/ ٨٠).

(٢) ما بين المعكوفين من (ل) و(ض) و(ط).

وقال عمر بن عبد العزيز: ما من مؤمن يموت إلاَّ حفظه الله في عَقِبِهِ وعَقِب عقبه.

وقال يحيى بن إسماعيل بن سلمة بن كُهيل: كان لي أخت أسن مني فاختلطت وذهب عقلها وتوحشت، وكان في غرفة في أقصى سطوحنا فمكثت بذلك بضعَ عشرةَ سنة، فبينما أنا نائم ذات ليلة إذا باب بيتي يُدَقُّ نصفَ الليل، فقلت: من هذا؟! قالت: كجه. فقلت: أختي؟ قالت: أختك. ففتحت الباب فدخلت ولا عهد لها بالبيت أكثر من عشر سنين فقالت: أُتيت الليلة في منامي فقيل لي: إن الله قد حفظ أباكِ إسماعيل لسلمة جدّك، وحفظكِ لأبيكِ إسماعيل، فإن شئتِ دعوت الله فذهب ما بكِ، وإن شئتِ صبرتِ ولك الجنة، فإن أبا بكر وعمر قد شفعا لك إلى الله عز وجل بحب أبيكِ وجدكِ إيّاهما. فقلت: فإذا كان لا بد من اختيار أحدهما فالصبر على ما أنا فيه والجنة، وإن الله عز وجل لواسع بخلقه لا يتعاظمه شيء، إن شاء أن يجمعهما لي فعل. قالت: فقيل لي: فإن الله تعالى قد جمعهما لك ورضي عن أبيك وجدك بحبهما أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، قومي فانزلي فأذهب الله ما كان بها[1].

ومتى كان العبد مشتغلاً بطاعة الله عز وجل، فإن الله تعالى يحفظه في تلك الحال كما في مسند الإمام أحمد عن حميد بن هلال عن رجل قال:

(١) لا أعلم من أين يأتي المصنف بمثل هذه الحكايات التي جلها من نسيج الخيال عفا الله عنه؟!.

أتيت النبي ﷺ فإذا هو يريني بيتاً، فقال: «إنَّ امْرَأَةً كَانَتْ فِيهِ فَخَرَجَتْ في سَرِيَّةٍ من المُسْلِمِينَ وَتَرَكَتْ ثِنْتَي عَشْرَةَ عَنْزاً [لها][1] وصِيصِيَّتَها، كانت تَنْسُجُ بِهَا، قال: فَفَقَدَتْ عَنْزاً [من غنمها][1] وصِيصِيَّتَها فَقَالت: يا رَبِّ، إنَّكَ قد ضَمِنْتَ لِمَنْ خَرَجَ في سبيلكَ أن تَحْفَظَ عَلَيْهِ، وإنِّي قد فَقَدْتُ عَنْزاً من غَنَمِي وصِيصِيَّتِي، وإني أَنْشُدُكَ عَنْزِي وصِيصِيَّتِي. قال: فَجَعَلَ رسول الله ﷺ يَذْكُرُ شِدَّةَ مُنَاشَدَتِها رَبَّها تبارك وتعالى. قال رسول الله ﷺ: «فَأَصْبَحَتْ عَنْزَهَا ومِثْلَها وصِيصِيَّتَها ومِثْلَهَا، وهَاتِيكَ، فائتها [فسألها][1] إنْ شِئْتَ»، قال: قلت[2]: بل أَصْدُقُكَ[3].

وكان شيبان الراعي يرعى غنماً في البرية، فإذا جاءت الجمعة خط عليها خطاً وذهب إلى الجمعة ثم يرجع وهي كما تركها[4].

وكان بعض السلف في يده الميزان يزن بها دراهم فسمع الأذان فنهض ونفضها عن الأرض وذهب إلى الصلاة، فلما عاد جمعها فلم يذهب منها شيء.

ومن أنواع حفظ الله لمن حَفِظَه في دنياه: أن يحفظه من شر

---

(١) ما بين المعكوفين من المسند.

(٢) وفي جميع النسخ: «فقلت»، والمثبت من المسند و (ش) و (ل).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٦٧) وإسناده جيد وقال الهيثمي في المجمع (٥/٢٧٧): «ورجاله رجال الصحيح» والصِّيصيّة هي: الصِّنارة التي يغزل بها وينسج.

(٤) الحلية (٨/٣١٧).

كل من يريده بأذى من الجن والإنس. كما قال تعالى:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

قالت عائشة: يكفيه غمَّ الدنيا وهمها.

قال الربيع بن خثيم: يجعل له مخرجاً من كل ما ضاق على الناس(١).

وكتبت عائشة إلى معاوية: «إن اتقيت الله كفاك الناس، وإن اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئاً».

وكتب بعضُ الخلفاء إلى الحَكَم بن عمرو الغِفاري كتاباً يأمره فيه بأمرٍ يخالف كتاب الله، فكتب إليه الحكم: إني نظرت في كتاب الله فوجدته قبل كتاب أمير المؤمنين، وإن السموات والأرض لو كانتا رتقاً على امرىء فاتقى الله ـ عز وجل ـ، جعل الله مخرجاً، والسلام.

وأنشد بعضهم:

بِتَقْوَى الإلـهِ نَجَا مَنْ نَجَا وَفَازَ وَصَارَ إلى مَا رَجَا
وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَلْ لَهُ كما قَالَ من أَمْرِهِ مَخْرَجَا

كتب بعض السلف إلى أخيه: «أما بعد، فإنه من اتقى الله فقد حفظ نفسه، ومن ضيع تقواه فقد ضيع نفسه، والله الغني عنه».

ومن عجيب حفظ الله تعالى لمن حفظه أن يجعل الحيوانات المؤذية بالطبع حافظة له من الأذى وساعية في مصالحه، كما جرى

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٨/٩٠) وفي إسناده من لم أجد له ترجمة.

لسفينة مولى النبي ﷺ حيث كُسِر به المركب، وخرج إلى جزيرة، فرأى السَّبُع، فقال له: يا أبا الحارث! أنا سفينة مولى رسول الله ﷺ. فجعل يمشي حوله ويدله على الطريق حتى أوقفه عليها، ثم جعل يهمهم كأنه يودعه وانصرف عنه[1].

وكان أبو إبراهيم السائح قد مَرِض في بريّة بقرب دير، فقال: لو كنت عند باب الدير لنزل الرهبان فعالجوني. فجاء السبع فاحتمله على ظهره حتى وضعه على باب الدير فرآه الرهبان فأسلموا وكانوا أربعمائة[2].

وكان إبراهيم بن أدهم نائماً في بستان، وعنده حية في فمها طاقة نرجس، فما زالت تذب عنه حتى استيقظ.

فمَنْ حفظ الله حَفِظَه من الحيوانات المؤذية بالطبع، وجعل تلك الحيوانات حافظة له.

ومن ضيَّع الله ضيَّعه الله بين خلقه، حتى يدخل عليه الضرر بشيء ممَّن كان يرجو أن ينفعه، ويصير أخصّ أهله به وأرفقهم به يؤذيه.

كما قال بعضهم: إنّي لأعصي الله فأعرف ذلك في خُلق خادمي وحماري. يعني أن خادمَه يسوء خلقه عليه ولا يطيعه، وحماره يستعصي عليه فلا يواتيه لركوبه. فالخير كله مجموع في طاعة الله والإقبال عليه، والشر كله مجموع في معصيته والإعراض عنه.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/٣٦٩).

(٢) ذكر هذه القصة الذهبي في سير أعلام النبلاء (١١/٢٢٨، ٢٢٩) وقال: «هذه حكاية منكرة».

قال بعض العارفين: من فارق سُدَّة سيده لم يجد لقدميه قراراً أبداً.

[وقال بعضهم شعراً][1]:

وَالله مَا جِئْتُكُمْ زَائِراً ... إلاَّ وَجَدْتُ الأرْضَ تُطْوَى لِي
وَلاَ ثَنَيْتُ العَزْمَ عَنْ بَابِكُمْ ... إلاَّ تَعَثَّرْتُ بِأَذْيَالِي
بالله فاعفوا واصفحوا واجبروا ... كسري فحالي بكم حالي[2]

النوع الثاني: من الحفظ وهو أشرفهما وأفضلهما حفظ الله لعبده في دينه، فيحفظ عليه دينه وإيمانه في حياته من الشبهات المُردية والبدع المضلة، والشهوات المحرمة، ويحفظ عليه دينه عند موته، فيتوفاه على الإسلام.

قال الحكم بن أبان عن أبي مكي: إذا حضر الرجل الموت يقال للملك شمّ رأسه! قال: أجد في رأسه القرآن. قال: شمّ قلبه! قال: أجد في قلبه الصيام، قال: شمّ قدميه! قال: أجد في قدميه القيام قال: حفظ نفسه فحفظه الله عز وجل.

خرَّجه ابن أبي الدنيا.

وقد ثبت في الصحيحين من حديث البراء بن عازب أن النبي ﷺ عَلَّمه أن يقول عند منامه:

«اللَّهُمَّ إن قَبَضْتَ نفسي فَارْحَمْها، وإنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بما تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ»[3].

---

(١) ما بين المعكوفين من (ش) و(ل).

(٢) سقط هذا البيت من (ش) و(ل) و(ض) و(ط).

(٣) هذا الحديث ليس من حديث البراء وإنما هو من حديث أبي هريرة أخرجه =

وفي حديث عمر عن النبي ﷺ أنه علَّمه أن يقول: «اللَّهُمَّ احْفَظْنِي بالإِسْلَام قَائماً واحْفَظْنِي بالإسلام قَاعِداً، واحْفَظْنِي بالإِسْلَام رَاقداً، ولا تُطِعْ فيَّ عَدُواً ولا حَاسِداً».

خرَّجه ابن حبّان في «صحيحه»[1].

وكان النبي ﷺ إذا ودّع من يريد السفر يقول له:

«أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ دِينَكَ وأَمَانَتَكَ وَخَواتِيمَ عَمَلِكَ»[2].

وفي روايةٍ، وكان يقول:

«إنَّ الله إذا اسْتُوْدِع شِيْئاً حَفِظَهُ»[3].

خرَّجه النسائي وغيره.

وخرَّج الطبراني حديثاً مرفوعاً:

= البخاري (١١/١٢٦) ومسلم (٤/٢٠٨٤)، وأما حديث البراء بن عازب فبلفظ آخر أخرجه البخاري (١١/١٠٩، ١١٣، ١١٥) ومسلم (٤/٢٠٨١، ٢٠٨٢).

(١) أخرجه ابن حبان (٢٢٣٠) وفي إسناده معلى بن رويبة التميمي لم أقف له على ترجمة، وهاشم بن عبد الله بن الزبير لم يسمع من عمر بن الخطاب كما في الجرح والتعديل (٩/١٠٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢/٧) والترمذي (٣٤٤٣) وقال: «حسن صحيح» والنسائي في عمل اليوم والليلة (٥٢٤) من حديث ابن عمر وإسناده حسن، وللحديث عدة طرق وشواهد يصح بها أطال النفس في تخريجها والحكم عليها الحافظ ابن حجر في الأمالي كما في الفتوحات الربانية لابن علان (٥/١١٦ - ١١٩).

(٣) أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة (٥٠٩) وابن حبان (٢٣٧٦) والبيهقي (٩/١٧٣) وإسناده حسن من حديث ابن عمر أيضاً.

«إنَّ العَبْدَ إِذَا صَلَّى الصَّلاَةَ على وَجْهِهَا صَعِدَتْ إِلَى الله وَلَهَا بُرْهَانٌ كَبُرْهَانِ الشَّمْسِ وتقولُ لِصَاحِبِهَا: حَفِظَكَ الله كَمَا حَفِظْتَنِي. وإذا ضيَّعَهَا لُفَّتْ كما يُلَفُّ الثَّوْبُ الخَلِقُ ثمَّ يُضْرَبُ بِهَا وَجْهُ صَاحِبِهَا، وتقولُ لَهُ: ضَيَّعَكَ الله كَمَا ضَيَّعْتَنِي»[1].

وكان عمر رضي الله عنه يقول في خطبته: اللهم اعصمنا بحفظك وثبّتنا على أمرك. ودعا رجل لبعض السلف بأنْ يحفظه الله فقال له: يا أخي! لا تسأل عن حفظه ولكن قل يحفظ الإيمان. يعني أن المهم هو الدعاء بحفظ الدين، فإن الحفظ الدنيوي قد يشترك فيه البرُّ والفاجر فالله تعالى يحفظ على المؤمن دينه، ويحول بينه وبين ما يفسده عليه بأسباب قد لا يشعر العبد ببعضها، وقد يكون يكرهه.

وهذا كما حفظ يوسف ـ عليه السلام ـ قال:

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

فمن أخلص لله خلّصه من السوء والفحشاء، وعصمه منهما من حيث لا يشعر، وحال بينه وبين أسباب المعاصي المهلكة.

كما رأى معروف الكرخي شباباً يتهيئون للخروج إلى القتال في فتنة، فقال: اللهم احفظهم. فقيل له: تدعو لهؤلاء؟ فقال: إنْ

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط كما في مجمع البحرين (ق ٢٧/أ) من حديث أنس بن مالك وإسناده ضعيف جداً فيه عباد بن كثير الثقفي البصري متروك الحديث وكذبه بعض الأئمة، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/٣٠٢): «وفيه عباد بن كثير وقد أجمعوا على ضعفه».

حَفِظَهم لم يخرجوا إلى ما أرادوا[1].

وسمع عمر رجلاً يقول: اللهم إنك تحول بين المرء وقلبه، فحل بيني وبين معاصيك. فأعجب ذلك عمر ودعا له بخير.

وروي عن ابن عباس في قوله تعالى:

﴿يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤].

قال: يحول بين المؤمن وبين المعصية التي تجره إلى النار[2].

حجَّ بعض المتقدمين فبات بمكة مع قوم، فهمَّ بمعصية، فسمع هاتفاً يهتف يقول: ويلك ألم تحج؟ فعصمه الله مما همَّ به.

وخرج بعضهم مع رفقة إلى معصية، فلما همّ بمواقعتها هتف به هاتف:

﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]. فتركها.

ودخل رجل غيضة ذات شجر فقال: لو خلوت ههنا بمعصية

---

(١) وفي (ض) و(ط): «القتال».

(٢) أخرجه الطبري (١٤٣/٩) من طريق محمد بن سعد قال: ثني أبي قال: ثني عمي قال: ثنا أبي عن أبيه عن ابن عباس، وهذا إسناد مسلسل بالضعفاء ــ وقد أوردته للتنبيه عليه ــ فمحمد بن سعد هو محمد بن سعد بن محمد بن الحسن بن عطية بن سعد العوفي قال عنه الخطيب في تاريخه (٣٢٢/٥): «لين»، وأبوه سعد بن محمد قال عنه أحمد: «جهمي» ذكره في لسان الميزان (١٨/٣)، وعمه هو الحسين بن الحسن بن عطية ضعفه ابن معين وابن حبان وغيرهما كما في ميزان الاعتدال (٥٣٢/١)، وأبوهما الحسن بن عطية بن سعد العوفي ضعيف كما في التقريب.

من كان يراني؟ فسمع صوتاً ملأ ما بين حافتي الغيضة:

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وهمَّ رجل بمعصية فخرج إليها، فمرَّ في طريقه بقاص يقص على النَّاس، فوقف على حلقته فسمعه يقول: أيها الهامُّ بالمعصية! أما علمت أن خالق الهمة مطلع على همتك؟ فوقع مغشياً عليه فما أفاق إلَّا عن توبة.

كان بعض الملوك الصالحين قد تعلّق قلبه بمملوك له جميل، فخشيَ على نفسه، فقام ليلة واستغاث الله، فمرض المملوك من ليلته، ومات بعد ثلاث.

ومنهم من عُصِمَ[١] بموعظة جرت على لسان من أراد منه الموافقة على المعصية.

«كَمَا جَرَى لأَحَدِ الثَّلاَثَة الذينَ دَخَلُوا الغَارَ وانطَبَقَتِ عَلَيْهِمْ الصَّخْرَة، فإِنَّهُ لمَّا جَلَسَ من تِلْكَ المَرْأةِ مَجْلِسَ الرَّجُل من امرأتِهِ، قالت له: يا عَبْدَ الله! اتقِ اللَّهَ، ولا تَفُضَّ الخَاتَمَ إلَّا بِحَقِّهِ فَقَامَ عَنْهَا»[٢].

«وَكَذَلِكَ الكِفْلُ مِنْ بَنِي إِسْرَائيلَ، كَانَ لا يَتورَّعُ عن مَعْصيةٍ، فأَعْجَبَتهُ امرَأةٌ فَأَعْطَاها ستينَ ديناراً، فلما قَعَدَ منها مَقْعَدَ الرَّجُلِ من امرأتِهِ ارتعَدَتْ، فقال: أكْرَهْتُكِ؟ قالت: لا، وَلَكِنْ هذا عَملٌ ما عملتُهُ قَطُّ وإنَّما حَمَلَنِي عليه الحَاجَة.

---

(١) وفي (ض) و(ط): «عصم نفسه».

(٢) ورد من حديث ابن عمر أخرجه البخاري (٤/ ٤٤٩) ومسلم (٤/ ٢٠٩٩).

فقال: تَخَافِينَ الله ولا أَخَافُهُ! ثُمَّ قَامَ عنها وَوَهَبَ لها الدَّنانير، وقال: واللَّهِ لا يَعْصِي اللَّهَ الكِفْلُ أبداً. ومَاتَ من ليلَتِهِ فَأَصْبَحَ مكتوباً على بابِهِ، قد غَفَرَ الله للكِفْلِ».

خرَّج الإمام أحمد والترمذي حديثه هذا من حديث ابن عمر مرفوعاً[1].

وراود رجل امرأة عن نفسها، وأمرها بغلق الأبواب ففعلت، وقالت له: قد بقي باب واحد. قال: وأي باب هو؟ قالت: الباب الذي بيننا وبين الله عز وجل. فلم يَعرُض لها[2].

وراود رجل أعرابية، قال لها: ما يرانا إلَّا الكواكب. قالت: فأين مُكَوكِبُها؟![3].

وهذا كله من ألطاف الله وحيلولته بين العبد وبين معصيته.

قال الحسن وذكر أهل المعاصي: هانوا عليه فعصوه، ولو عَزُّوا عليه لعصمهم. وقال بشر: ما أصر على معصية الله كريم، ولا آثر الدنيا على الآخرة حكيم.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٣) والترمذي (٢٤٩٦) وفي إسناده ضعف فيه سعد مولى طلحة قال عنه أبو حاتم الرازي: «لا يعرف إلَّا بحديث واحد» ووثقه ابن حبان قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (١/٢٢٦): «رواه الترمذي من حديث الأعمش به، وقال: حسن، وذكر أن بعضهم رواه فوقفه على ابن عمر، فهو حديث غريب جداً، وفي إسناده نظر، فإن سعداً هذا قال أبو حاتم لا أعرفه إلَّا بحديث واحد، ووثقه ابن حبان، ولم يرو عنه سوى عبد الله الرازي هذا فالله أعلم». اهـ.

(٢) وفي (ش) و (ض) و (ط): «يتعرض».

(٣) انظر ذم الهوى لابن الجوزي (ص ٢٧٢).

ومن أنواع حفظ الله لعبده في دينه: أن العبد قد يسعى في سبب من أسباب الدنيا ــ إما الولايات أو التجارات أو غير ذلك ــ فيحول الله بينه وبين ما أراد لما يعلم له من الخِيرَة في ذلك وهو لا يشعر مع كراهته لذلك.

قال ابن مسعود: إن العبد ليهم بالأمر من التجارة والإمارة حتى يُيَسَّرَ له، فينظر الله إليه فيقول للملائكة: اصرفوه عنه، فإني إن يسَّرته له أدخلته النار فيصرفه الله عنه، فيَظَلُّ يتطير، يقول: سبقني فلان، دهاني فلان، وما هو إلَّا فضل الله عز وجل.

وأعجَبُ من هذا أن العبد قد يطلب باباً من أبواب الطاعات، ولا يكون له فيه خيرة، فيحول الله بينه وبينه صيانة له وهو لا يشعر.

وخرَّج الطبراني وغيره من حديث أنس مرفوعاً: «يقولُ الله عزَّ وجلَّ:

إنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لا يُصْلِحُ إيمَانَهُ إلَّا الفَقْرُ، وإنْ بَسَطْتُ عليه أَفْسَدَهُ ذلِكَ، وإنْ مِنْ عِبَادِي مَنْ لا يُصْلِحُ إيمَانَهُ إلَّا الغِنَى، وَلَوْ أَفْقَرْتُهُ لأَفْسَدَه ذلِكَ، وإنَّ مِنْ عِبَادِي مَن لا يُصْلِحُ إيمَانَهُ إلَّا الصِّحةُ وَلَوْ أسقَمْتُهُ لأَفْسَدَهُ ذلك، وإن مِنْ عِبَادي من لا يصلح إيمانَهُ إلَّا السَّقمُ وَلَوْ صَحَحْتُهُ لأفسدُه ذلك، وإن مِنْ عِبَادِي من يطلبُ باباً من العِبَادَة فأكُفُّهُ عَنْهُ لكيلا يدخلَه العُجْبُ، إني أُدَبِّر عِبَادِي بِعِلْمِي بما في قلوبهم إنِّي عَلِيمٌ خَبِيرٌ»(١).

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الأولياء (ص ١٠٠، ١٠١) وأبو نُعيم في الحلية =

كان بعض المتقدمين يكثر سؤال الشهادة فهتف به هاتف: إنك إن غَزَوْتَ أُسِرْت، وإن أُسِرْتَ تَنَصَّرْتَ. فكَفَّ عن سؤاله.

وفي الجملة فمن حفظ حدود الله وراعى حقوقه، تولى الله حفظه في أمور دينه ودنياه، وفي دنياه وآخرته.

وقد أخبر الله تعالى في كتابه أنه ولي المؤمنين وأنه يتولى الصالحين، وذلك يتضمن أنه يتولى مصالحهم في الدنيا والآخرة، ولا يكلهم إلى غيره، قال تعالى:

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١].

وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

وقال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦].

فمن قام بحقوق الله عليه فإن الله يتكفل له بالقيام بجميع مصالحه في الدنيا والآخرة، فمن أراد أن يتولى اللَّهُ حِفْظَه ورعايته في أموره كلها فليراعِ حقوق الله عليه، ومن أراد ألَّا يصيبه شيء مما يكره فلا يأت شيئاً مما يكرهه الله منه.

= (٣١٨/٨، ٣١٩) واستغربه والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ١٥٠) وإسناده ضعيف؛ فيه الحسن بن يحيى الخشني صدوق كثير الغلط وصدقة بن عبد الله السمين الدمشقي وليس بسمين في الحديث! بل هو ضعيف.

كـان بعض السلف يدور على المجـالس، ويقول: من أحب أن تدوم له العافية فليتق الله.

وقال العمري الـزاهد لمن طلب منـه الوصيـة: كما تحب أن يكون الله لك، فهكذا كن لله ــ عز وجل ــ .

وقـال صالـح بن عبد الكـريم: يقول الله عـز وجل: وعـزتي وجلالي لا أطلع على قلب عبد أعلم أن الغالب عليه حبُّ التمسك بطاعتي، إلاَّ توليت سياسته وتقويمه.

وفي بعض الكتب المتقـدمة: يقـول الله عز وجـل: ابنَ آدم! ألا تُعَلِّمُني ما يُضحكك؟! ابنَ آدم! اتقني ونَمْ حيث شئت.

والمعنى: أنـك إذا قمت بمـا عليـك لله من حقـوق التقـوى فلا تهتم بعد ذلـك بمصالحـك، فإن الله هـو أعلم بها منـك، وهو يوصلها إليك على أتم الوجوه من غير اهتمام منك بها.

وفي حـديث جابـر عن النبـي ﷺ: «مَنْ كَـانَ يُحِبُّ أَنْ يَعْلَمَ مَنْزِلَتَهُ عِنْدَ الله فَلْيَنْظُرْ كَيْفَ مَنْزِلَةُ الله عِنْدَهُ، فإن الله يُنْزِلُ العَبْدَ مِنْهُ، حَيْثُ أَنْزَلَهُ مِنْ نَفْسِهِ»(١).

فهذا يدل على أنه على قدر اهتمـام العبد بحقـوق الله وبأداء حقوقه ومراعاة حدوده واعتنائه بذلـك وحفظه لـه، يكون اعتنـاؤه به

---

(١) أخـرجـه أبـو يعلى في مسنـده (١٨٦٥، ٢١٣٨) والبـزار (٤/٥ ــ كشف) والطبراني في الأوسط كما في المجمع (١٠/٧٧) والحاكم (١/٤٩٤، ٤٩٥) وإسنـاده ضعيف؛ فيه عمـر بن عبد الله مـولى غفرة ضعيف وبـه أعله الذهبـي في التلخيص والهيثمي في المجمع.

وحفظه له، فمن كان غاية همِّه رضا الله عنه وطلب قربه ومعرفته ومحبته وخدمته، فإن الله يكون له على حسب ذلك كما قال تعالى:

﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢].

﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ [البقرة: ٤٠].

بل هو سبحانه أكرم الأكرمين. فهو يجازي بالحسنة عشراً ويزيد، ومن تقرَّب منه شبراً تقرَّب منه ذراعاً، ومن تقرّب منه ذراعاً تقرّب منه باعاً، ومن أتاه يمشي أتاه هرولة.

فما يؤتى الإنسان [إلّا][1] من قبل نفسه ولا يصيبه المكروه إلّا من تفريطه في حق ربه عز وجل، كما قال علي رضي الله عنه: لا يرجونَّ عبد إلّا ربه، ولا يخافنّ إلّا ذنبه، وقال بعضهم: من صَفي صُفِّي له، ومن خَلَّطَ خُلِّط عليه.

وقال مسروق: من راقب الله في خطرات قلبه عصمه الله في حركات جوارحه. وبسط هذا المعنى يطول جداً، وفيما أشرنا إليه كفاية، ولله الحمد.

● ● ●

(١) ما بين المعكوفين سقط من (ب).

وقوله ﷺ: «احْفَظِ الله تَجِدْهُ أَمَامَكَ» وفي رواية أخرى: «تُجَاهَكَ»

معناه أن من حفظ حدود الله وراعى حقوقه وجد الله معه في جميع الأحوال يَحُوطُهُ وينصره ويحفظه ويوفقه ويؤيده ويسدده، فإنه قائم على كل نفس بما كسبت، وهو تعالى مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

قال قتادة: من يتق الله يكن معه، ومن يكن الله معه فمعه الفئة التي لا تغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل.

كتب بعض السلف إلى أخ له: «أما بعد، فإن كان الله معك فممن تخاف؟! وإن كان عليك فمن ترجو؟! والسلام».

وهذه المعية الخاصة بالمتقين غير المعية العامة المذكورة في قوله تعالى:

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

وقوله:

﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨].

فإن المعية الخاصة تقتضي النصر والتأييد والحفظ والإعانـة، كما قال تعالى لموسى وهارون:

﴿ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: ٤٦].

وقوله تعالى:

﴿ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ ﴾ [التوبة: ٤٠].

وكـان ﷺ قـد قـال لأبـي بكـر الصـديق في تلك الحـال: «مَا ظَنُّكَ باثْنَينِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا»(١).

فهذا غير المعنى المذكور في قوله تعالى:

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ . . ﴾ الآية. [المجادلة: ٧].

فـإن ذلـك عـام لكـل جمـاعـة. ومن هـذا المعنى الخـاص الحديث الإلهي وقوله فيه:

«ولا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إليَّ بالنَوافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتُـهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ بِهِ وَيَـدَهُ التي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ التي يَمْشِي بِهَا»(٢).

إلى غير ذلك من نصـوص الكتاب والسنـة الدالـة على قرب الرب سبحانه ممن أطاعه واتقاه، وحفظ حدوده وراعاه.

دخـل بُنان الحمـال البريـة على طريق تبـوك، فـاستـوحش، فهتف به هاتف: لم تستوحش؟ أليس حبيبك معك؟(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٨/٣٢٥).

(٢) أخرجه البخاري (١١/٣٤٠، ٣٤١) من حديث أبـي هريرة.

(٣) انظر الحلية (١٠/٣٢٤).

فمن حفظ الله وراعى حقوقه وجده أمامه وتجاهه على كل حال، فاستأنس به واستغنى به[1] عن خلقه.

وفي الحديث:

«أَفْضَلُ الإِيمانِ أن يَعْلَمَ العَبْدُ أَنَّ الله مَعَهُ حَيْثُ كَانَ»[2].

خرَّجه الطبراني وغيره. وبسط هذا القول يطول جداً.

كان بعض العلماء الربانيين كثير السفر على التجريد[3]، وحده، فخرج الناس مرة معه يودعونه فردهم، وأنشد:

إذا نَحْنُ أَدْلَجْنَاوأَنْتَ أَمَامنا   كَفَى لِمَطَايَانَا بِذكْراك هَادِيَا

وكان الشبلي ينشد هذا البيت وربما قطع مجلسه عليه.

● ● ●

---

(١) وفي (ط): «وليستغن».

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط كما في مجمع البحرين (١/١٠/أ ـ أحمد الثالث بتركيا ٤٦٣) وأبو نعيم في الحلية (٦/١٢٤) من حديث عبادة بن الصامت، وقال الطبراني بعد سياقه للحديث: «تفرد به عثمان بن كثير» قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/٦٠): «لم أر من ذكره بثقة وجرح».
قلت: وعثمان هذا هو ابن سعيد بن كثير بن دينار ثقة عابد كما في التقريب، والذي جعل الهيثمي ـ رحمه الله تعالى ـ يحكم بأنه لم يقف على من ذكره بثقة أو جرح أنه عند الطبراني نسبه إلى جده وذكر اسمه كاملاً إلاّ اسم أبيه صاحب الحلية فوجب التنبيه على هذا والحديث إسناده ضعيف؛ فإن فيه نعيم بن حماد صدوق يخطىء كثيراً.

(٣) سقط هذا من (ض) و(ط).

قوله ﷺ: «تَعَرَّفْ إلَى الله فِي الرَّخاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ»

المعنى[1]: أن العبد إذا اتقى الله وحفظ حدوده وراعى حقوقه في حال رخائه وصحته، فقد تعرف بذلك إلى الله وكان بينه وبينه معرفة، فعرفه ربه في الشدة وعرف له عمله في الرخاء، فنجاه من الشدائد بتلك المعرفة.

وهذه أيضاً معرفة خاصة تقتضي القرب من الله عز وجل، ومحبته لعبده، وإجابته لدعائه، وليس المراد بها المعرفة العامة فإن الله لا يخفى عليه حال أحد من خلقه، كما قال تعالى:

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [النجم: ٣٢].

وقال:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦].

وهذا التعرف الخاص هو المشار إليه في الحديث الإلهي: «وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إليَّ بِالنَّوافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ...» إلى

---

(١) سقطت هذه الكلمة من (ش).

أن قال: «وَلَئِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِن اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ»[1].

اجتمع الفضيل بشعوانة العابدة فسألها الدعاء، فقالت: يا فضيل، وما بينك وبينه؟ إن دعوته أجابك. فشهق الفضيل شهقة خرَّ مغشياً عليه.

وقال أبو جعفر السائح: أتى الحسن إلى حبيب أبي محمد هارباً من الحجاج، فقال: يا أبا محمد! احفظني من الشُّرَط، هم على إثري. فقال: استحييت لك يا أبا سعيد، أليس بينك وبين ربك من الثقة ما تدعوه فيسترك من هؤلاء؟ ادخل البيت فدخل الشرط على إثره فلم يروه. فذكروا ذلك للحجاج فقال: بل كان في بيته إلَّا أن الله طمس أعينهم فلم يروه.

ومتى حصل هذا التعرف الخاص للعبد حصل للعبد معرفة خاصة بربه توجب له الأنس به والحياء منه، وهذه معرفة خاصة غير معرفة المؤمنين العامة. ومدار العارفين كلهم على حصول هذه المعرفة وهذا التعرف، وإشاراتهم تومىء إلى هذا.

سمع أبو سليمان رجلاً يقول: سهرت البارحة في ذكر النساء، فقال: ويحك! أما تستحي منه، يراك ساهراً في ذكر غيره، ولكن كيف تستحي ممن لا تعرف؟.

وقال أحمد بن عاصم الأنطاكي: أحب أن لا أموت حتى أعرف مولاي. وليس معرفته الإقرار به ولكن المعرفة الذي إذا عرفته استحييت منه[2]. وهذه المعرفة الخاصة والتعرف الخاص

---

(١) أخرجه البخاري (١١/ ٣٤٠، ٣٤١) من حديث أبي هريرة.

(٢) سقط من (ش) من قوله: «أحمد...» إلى قوله: «استحييت منه».

توجب طمأنينة العبد بربه وثقته به في إنجائه من كل شدة وكرب وتوجب استجابة الرب دعاء عبده.

لما اختفى الحسن البصري من الحجاج، قيل له: لو خرجت من البصرة فإنا نخاف أن يدل عليك. فبكى، ثم قال: أخرج من مصري وأهلي وإخواني؟ إن معرفتي بربي وبنعمته عليَّ تدلني على أنه سينجيني ويخلصني منه إن شاء الله تعالى. فما ضره الحجاج بشيءٍ ولقد كان يكرمه بعد ذلك إكراماً شديداً، ويحسن ذكره.

وقال رجل لمعروف: ما الذي هيّجك على الانقطاع والعبادة؟ وذكر له الموت والبرزخ والجنة والنار، فقال معروف: أي شيءٍ هذا؟! إن ملِكاً هذا كله بيده، إن كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا.

ومما يُبينُ هذا ويوضحه الحديث الذي خرَّجه الترمذي من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ:

«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ الله لَهُ عِنَدَ الشَّدَائِدِ، فَلْيُكْثِرِ الدعَاءَ في الرَّخَاءِ»(1).

---

(1) أخرجه الحاكم (1/544) وإسناده ضعيف؛ فيه عبد الله بن صالح صدوق كثير الغلط، وله طريق أخرى: أخرجها الترمذي (3382) وابن عدي في الكامل (5/1990) والطبراني في الدعاء (45) وعبد الغني المقدسي في الدعاء (145/ب)، وإسناده ضعيف مسلسل بالضعفاء وهم: عبيد بن واقد ضعيف، وسعيد بن عطية مقبول كما في التقريب ـ يعني لين ـ، وشهر بن حوشب صدوق كثير الإرسال والأوهام، وله كذلك طريق أخرى: أخرجها =

وخرَّج ابن أبي الدنيا وابن أبي حاتم وابن جرير وغيرهم من حديث يزيد الرَّقَاشي عن أنس يرفع الحديث:

«أن يُونسَ ــ عليه السلام ــ لَمَّا دَعا وهو في بطن الحوت، قالت المَلائِكَةُ: يا رَب: هذا صَوْتٌ مَعْروفٌ من بلاد غَريبة! فقَالَ الله: أَما تَعرِفونَ ذلك؟ قالوا: ومن هو؟ قال: عَبْدي يونس. قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يُرْفَعُ لَهُ عَمَلٌ مُتقبلٌ وَدَعْوةٌ مُسْتَجَابةٌ؟! قال: نعم. قالوا: يا رب! أفلا تَرْحَمُ ما كان يَصْنَعُ في الرَّخاء فَتُنْجِيَه مِنَ البَلاَءِ؟ قال: بلى. فَأَمَرَ الله الحُوتَ فَطَرَحَهُ بالعَرَاءِ»(1).

قال الضحاك بن قيس: اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة، إن يونس ــ عليه السلام ــ كان يذكر الله، فلما وقع في بطن الحوت قال الله تعالى:

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣].

وإن فرعون كان طاغياً ناسياً لذكر الله فلما أدركه الغرق قال: آمنت. فقال الله تعالى:

= الخطيب في التاريخ (١/٤١٤، ٨/٣٩٩) وإسنادها ضعيف جداً؛ فيها روح بن مسافر أبو بشر، بصري، تركه ابن المبارك وأبو داود والجوزجاني كما في الميزان (٢/٦١)، وأبان بن أبي عياش متروك الحديث، فالحديث ضعيف.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره كما في تفسير ابن كثير (٤/٢١) وابن جرير (٢٣/٦٤) والطبراني في الدعاء (٤٧) وابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة (ص ٢٥ ــ من المطبوعة) وإسناده ضعيف جداً؛ فيه يزيد بن أبان الرقاشي متروك كما قال النسائي وغيره.

﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾

[يونس: ٩١][1].

وقال رِشْدين بن سعد: قال رجل لأبي الدرداء: أوصني فقال: اذكر الله في السراء يذكرك في الضراء. قال سلمان الفارسي: إذا كان الرجل دعّاءً في السراء فنزلت به ضراء فدعا الله عز وجل، قالت الملائكة: صوت معروف فشفعوا له، وإذا كان ليس بدّعاءٍ في السراء فنزلت به ضراء فدعا الله عز وجل قالت الملائكة: صوت ليس بمعروف فلا يشفعون له.

وحديث الثلاثة الذين دخلوا الغار وانطبقت عليهم الصخرة يشهد لهذا أيضاً، فإنهم فُرِّج عنهم بدعائهم لله بما كان سبق منهم من الأعمال[2] الخالصة في حال الرخاء: من بر الوالدين، وترك الفجور، وأداء الأمانة الخفية[3].

فإذا عُلِمَ أن التعرّف إلى الله في الرخاء يُوجب معرفة الله لعبده في الشدة فلا شدة يلقاها المؤمن في الدنيا أعظم من شدة الموت، وهي أهون مما بعدها إن لم يكن مصير العبد إلى خير، وإن كان مصيره إلى خير فهي آخر شدة يلقاها.

فالواجب على العبد الاستعداد للموت قبل نزوله بالأعمال الصالحة والمبادرة إلى ذلك، فإنه لا يدري المرء متى تنزل به هذه الشدة من ليل أو نهار. وذكر الأعمال الصالحة عند الموت

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٣/ ٦٤) وإسناده حسن.

(٢) وفي (ض) و (ط): «الصالحة».

(٣) تقدم تخريجه (ص ٦١).

مما يُحسِّن ظنَّ المؤمن بربه، ويهوِّن عليه شدة الموت ويقوِّي رجاءه.

قال بعضهم: كانوا يستحبون أن يكون للمرء خبيئة من عمل صالح، ليكون أهون عليه عند نزول الموت. أو كما قال.

وكانوا يستحبون أن يموت المرء عقب طاعة عملها من حج أو جهاد أو صيام.

وقال النخعي: كانوا يستحبون أن يلقنوا العبد محاسن عمله عند موته لكي يحسن ظنه بربه.

قال أبو عبد الرحمن السُّلمي في مرضه: كيف لا أرجو ربي وقد صمت له ثمانين رمضان.

ولما احتُضِر أبو بكر بن عيّاش وبكوا عليه قال: لا تبكوا، فإني ختمت القرآن في هذه الزاوية ثلاث عشرة ألف ختمة.

وروي عنه أنه قال لابنه: أترى أن الله يضيع لأبيك أربعين سنة يختم القرآن كل ليلة؟.

وقال بعض السلف لابنه عند موته ورآه يبكي قال: لا تبك فما أتى أبوك فاحشةً قط.

وختم آدم بن أبي إياس القرآن وهو مسجى للموت ثم قال: بحبي لك إلا رفقت بي في هذا المصرع، كنت أؤملك لهذا اليوم، كنت أرجوك، لا إله إلاَّ الله. ثم قضى رحمه الله.

وكان عبد الصمد الزاهد يقول عند موته: سيدي! لهذه الساعة خبأتك، ولهذا اليوم اقتنيتك، حقّق حسن ظني بك.

وقال ابن عقيل عند موته وقد بكى النسوة: قد وقّعت عنه خمسين سنة، فدعوني أتهنأ بلقائه.

ولما هجم القرامطة على الحُجّاج وقتلوهم في الطواف، وكان علي بن بابويه الصوفي يطوف فلم يقطع الطواف والسيوف تأخذه حتى وقع. فأنشد:

تَرَىَ المُحِبِّينَ صَرْعَى في دِيَارِهُمُ   كَفِتْيَةِ الكَهْفِ لا يَدْرونَ كَمْ لَبِثُوا

ويعده بيت آخر:

تَـاللَّهِ لو حَلَفَ الأَحْبَـابُ أَنَّهُمُ   مَوْتى مِنْ البَيْنِ يَوْمَ البَيْنِ ما حَنَثُوا

فمن أطاع الله واتقاه وحفظ حدوده في حياته، تولاه الله عند وفاته، وتوفاه على الإيمان وثبته بالقول الثابت في القبر عند سؤال الملكين، ودفع عنه عذاب القبر، وآنس وحشته في تلك الوحدة والظلمة.

قال بعض السلف: إذا كان الله معك عند دخول القبر فلا بأس عليك ولا وحشة. ورؤي بعض العلماء الصالحين في النوم بعد موته، فسئل عن حاله، فقال: يؤنسني ربي عز وجل.

فمن كان الله أنيسه في خلواته في الدنيا، فإنه يرجى أن يكون أنيسه في ظلمات اللحود إذا فارق الدنيا وتخلى عنها، وفي هذا المعنى يقول بعضهم[1]:

---

(١) هو موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي الدمشقي كما ذكر ذلك المصنف في كتابه ذيل طبقات الحنابلة (٢/١٤١).

فَيــا رَب كُنْ لِي مُؤْنِســاً يَــوْمَ وَحْشَتِي
فَــإنــي بِـمَــا أنْــزَلْــتَــهُ لَــمُــصَــدِّقُ
وَمَــا ضَــرَّنِــي أَنِّـي إلــى الله صَــائِـر
وَمَــن هُــوَ مِــنْ أَهْــلِي أبــرُّ وأَرْفَــقُ

وكذلك أهوال القيامة وأفزاعها وشدائدها، إذا تـولى الله عبده المطيع له في الدنيا، أنجاه من ذلك كله.

قال قتادة في قوله تعالى:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

قال: من الكرب عند الموت، ومن أفزاع يوم القيامة.

وقـال علي بن أبـي طلحـة عن ابن عبـاس في هـذه الآيـة: ننجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة[١].

وقال زيد بن أسلم في قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ [الأحقاف: ١٣].

قال: يبشر بذلك عند موتـه وفي قبره ويـوم يبعث، فإنـه لفي الجنة، وما ذهبت فرحة البشارة من قلبه.

وقـال ثـابت البُنـاني في هـذه الآيـة: بلغنـا أن المؤمن حين يبعثه الله من قبره يتلقاه ملكاه اللذان كـانا معـه في الدنيـا، فيقولان لـه: لا تخف ولا تحزن. فيُـؤَمِّنُ الله خوفـه ويقرُّ الله عينـه، فما من

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٨/٨٩) وإسناده منقطع؛ علي بن أبـي طلحة لم يسمع من ابن عباس.

عـظيمة تغشى النـاس يوم القيـامة إلاَّ وهي للمؤمن قـرة عين، لمـا هداه الله ولما كان عمل في الدنيا. خـرَّج ذلك كله ابن أبـي حـاتم وغيره[1].

وأما من لم يتعرف إلى الله في الرخاء، فليس له من[2] يعرفه في الشدة لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وشواهدُ هذا مشاهدةُ حالِهم في الـدنيا، وحـالُهم في الآخرة أشد، وما لهم من ولي ولا نصير.

• • •

---

(١) أخرجه ابن أبـي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٤/ ٩٩) وإسناده حسن.

(٢) وفي (ض) و (ط): «أن».

وقوله ﷺ: «إِذا سَأَلْتَ فاسْأَلِ الله»

أَمَر بإفراد الله عز وجل بالسؤال ونهى عن سؤال غيره من الخلق، وقد أمر الله تعالى بسؤاله. فقال:

﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢].

وفي الترمذي عن ابن مسعود مرفوعاً:

«سَلوا الله من فَضْلِهِ، فإنَّ الله يُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ»(١).

وفيه عن أبي هريرة مرفوعاً: «مَنْ لاَ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ»(٢).

وفيه أيضاً:

«إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُلِحِّينَ في الدُّعَاءِ»(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٧١) وابن عدي في الكامل (٢/٦٦٥) والطبراني في الكبير (١٠/١٢٤، ١٢٥) وفي الدعاء (٢٢) وإسناده ضعيف؛ فيه حماد بن واقد ضعيف كما في التقريب، وأبو إسحاق لم يصرح بالتحديث.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١٠/٢٠٠) وأحمد (٢/٤٤٢، ٤٤٣) والبخاري في الأدب المفرد (٦٥٨) والترمذي (٣٣٧٣) وابن ماجه (٣٨٢٧) وابن عدي في الكامل (٧/٢٧٥٠) وابن الأعرابي في معجم شيوخه (١٧٨/أ) والطبراني في الدعاء (٢٣) والحاكم (١/٤٩١) والبغوي في شرح السنة (٥/١٨٨) وإسناده فيه ضعف؛ فيه أبو صالح الخوزي لين الحديث كما في التقريب.

(٣) لم أجده في الترمذي ولم يعزه أحد إليه سوى المصنف، والحديث أخرجه =

وفي حديث آخر:

«لِيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ كُلَّها حَتَّى يَسْأَلَهُ شِسْعَ نَعْلِهِ إذا انْقَطَعَ»[1].

= العقيلي في الضعفاء (٤/٤٥٢) وابن عدي في الكامل (٧/٢٦٢١) من طريق يوسف بن السفر عن الأوزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة مرفوعاً به وإسناده موضوع؛ فإن فيه يوسف بن السفر كذبه البخاري وقال البيهقي: «هو في عداد من يضع الحديث» وقد أورد حديثه هذا العقيلي وابن عدي في ترجمته، وأخرجه العقيلي (٤/٤٥٢) والطبراني في الدعاء (٢٠) من طريق بقية عن الأوزاعي به، وهذا من تدليس بقية حيث أسقطه في هذه الرواية ولذلك اتهم بقية بأنه كان يدلس عن الضعفاء والمتروكين قال أبو مسهر: «أحاديثُ بقية ليست بنقيّة فكن منها على تقية».

(١) أخرجه الترمذي (٤/٢٩٢ ـ تحفة الأحوذي) وابن حبان (٢٤٠٢) وابن السني في عمل اليوم والليلة (٣٥٤) وابن عدي في الكامل (٦/٢٠٧٦) والطبراني في الدعاء (٢٥) وأبو نعيم في أخبار أصبهان (٢/٢٨٩) من طريق قطن بن نُسير عن جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس به، وإسناده ضعيف قطن هذا كان أبو حاتم يحمل عليه واتهمه ابن عدي بسرقة الحديث، وللحديث طريق أخرى: أخرجها البزار (٤/٣٧ ـ كشف) من طريق سيّار ـ ووقع في الكشف بشار والتصويب من المجمع ـ ابن حاتم ثنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس به، وإسناده ضعيف أيضاً فإن سياراً هذا قد ضعفه ابن المديني وقال العقيلي والحاكم: «عنده مناكير»، هذا وقد رواه الترمذي (٤/٢٩٢) من طريق صالح بن عبد الله ثنا جعفر بن سليمان عن ثابت البناني مرسلاً، وصالح بن عبد الله هذا ثقة وقد تابعه على الإرسال القواريري وهو ثقة أيضاً عند ابن عدي في الكامل (٦/٢٠٧٦) حيث قال ـ أي القواريري ـ ثنا جعفر عن ثابت به مرسلاً ـ ووقع في المطبوع من الكامل ومخطوطة أحمد الثالث منه: عن أنس والتصويب من تهذيب التهذيب (٨/٣٨٢) والميزان (٣/٣٩١) ـ قال القواريري: «باطل» وقال ابن عدي بعده: «وهو كما قال» وبما أن قطن وسيار ضعيفان وقد خالفا من هو أوثق منهما فالحديث بهذا يكون مرسلاً فعلى هذا يكون ضعيفاً والله أعلم.

وفي[1] المعنى أحاديث كثيرة، وفي النهي عن سؤال الخلق أحاديث كثيرة صحيحة.

وفي حديث ابن مسعود مرفوعاً:

«لَا يَزَالُ العَبْدُ يَسْأَلُ وهُوَ غنيّ حَتَّى يَخْلُقَ وَجْهُهُ فَمَا يَكُونُ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ وَجْهٌ»[2].

وقد بايع النبي ﷺ جماعة من أصحابه على أن لا يسألوا الناس شيئاً[3] منهم: أبو بكر الصديق، وأبو ذر، وثوبان، وكان أحدهم يسقط سوطه أو خطام ناقته فلا يسأل أحداً أن يناوله إياه.

واعلم أن سؤال الله تعالى دون خلقه هو المتعين عقلاً وشرعاً، وذلك من وجوه متعددة:

منها: أن السؤال فيه بذل ماء[4] الوجه وذلة للسائل، وذلك

---

(١) وفي (ض) و(ط): «هذا».

(٢) لم أجده بهذا اللفظ من حديث ابن مسعود وإنما هو من حديث مسعود بن عمر ـ فلعله سبق نظر من المصنف أو الناسخ ـ أخرجه البزار (١/٤٣٤ ـ كشف) والطبراني في الكبير (٢٠/٣٣٣) وقال الهيثمي في المجمع (٣/٩٦): «وفيه محمد بن أبي ليلى وفيه كلام» وفي التقريب: «صدوق سيِّىء الحفظ جداً» وأخرجه البخاري (٣/٣٣٨) ومسلم (٢/٧٢٠) من حديث ابن عمر مرفوعاً ولفظه: «ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مُزعة لحم»، وأخرج أحمد (٥/٢٨١) والبزار (١/٤٣٦) والطبراني في الكبير (٢/٨٦) عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل مسألة وهو عنها غني كانت شيناً في وجهه يوم القيامة» وإسناده صحيح، وقال البزار بعده: «إسناده حسن».

(٣) أخرجه مسلم (٢/٧٢١) من حديث عوف بن مالك.

(٤) وفي (ش) و(ض) و(ط): «لماء».

لا يصلح إلاَّ لله وحـده، فلا يصلح الـذل إلاَّ له بـالعبادة والمسـألة، وذلك من علامات المحبة الصادقة.

سُئل يوسف بن الحسين: ما بال المحبين يتلذذون بذلهم في المحبة؟

فـأنـشـد:

ذُلُّ الفَتَى في الحُبِّ مَكْـرُمَـةٌ وَخُضُـوعُـهُ لِحَبِيبِـه شَـرَفُ

وهـذا الذل وهـذه المحبة لا تصلح إلاَّ لله وحـده، وهذا هـو حقيقة العبادة التي يختص بها الإِلٓه الحق.

كان الإمام أحمـد يقول في دعـائه: اللهم كمـا صنت وجهي عن السجود لغيرك، فصنه عن المسألة لغيرك.

وقال أبو الخير الأقطع: كنت بمكة سنة فأصابتني فاقة وضر، فكنت كلمـا أردت أن أخرج إلى المسـألة هتف بـي هـاتف يقول: الوجه الذي تسجد لي به تبذله لغيري؟

وفي هذا المعنى يقول بعضهم:

مَا اعْتَاضَ بَـاذِلُ وَجْهِهِ بِسُؤالـه بَدَلاً وإن نَالَ الغِنَى بِسُؤَالِ
وإذا السُّؤال مَـعَ النَّوَال وَزَنْتَـهُ رَجَحَ السُّؤالُ وخَفَّ كُلُّ نَـوالِ
فإذا ابْتُلِيْتَ بِبَذْلِ وَجهِكَ سائلاً فـابْـذُلْـهُ لِلمُتَكَـرِّم المِفْضَـالِ

ولهذا المعنى كان عقوبةُ من أكثر المسألة بغير حاجة أن يأتي يـوم القيـامـة وليس على وجهـه مُـزعـة لحم، كمـا ثبت ذلـك في الصحيحين[1]، لأنـه أذهب عز وجهـه وصيانتـه وماءه في الـدنيـا،

(١) تقدَّم تخريجه في الصفحة السابقة.

فأذهب الله من وجهه في الآخرة جماله وبهاءه الحسي فيصير عظماً بغير لحم، ويَذهب جمالُه وبهاؤه المعنوي فلا يبقى له عند الله وجاهة.

ومنها: أن في سؤال الله عبوديةً عظيمةً لأنها إظهار للافتقار إليه، واعتراف بقدرته على قضاء الحوائج، وفي سؤال المخلوق ظلم لأن المخلوق عاجز عن جلب النفع لنفسه ودفع الضر عنها فكيف يقدر على ذلك لغيره؟ وسؤاله إقامة له مقام من يقدر وليس هو بقادر.

ويشهد لهذا المعنى الحديث الذي في «صحيح مسلم» عن أبي ذر عن النبي ﷺ:

«يَا عِبَادِيَ! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وإِنْسَكُم وجِنَّكُم، قَامُوا في صَعِيدٍ واحِدٍ فَسَأَلُوني، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إنسانٍ مَسْأَلَتَهُ، ما نَقَصَ ذلكَ مِمَّا عِنْدِي إلَّا كَمَا ينقُصُ المِخيَطُ إذا أُدْخِلَ البَحْرَ»[1]..

وفي الترمذي وغيره زيادة في هذا الحديث وهي:

«وذلك بأني جَوادٌ واجدٌ ماجِدٌ أَفْعَلُ ما أُرِيدُ، عَطَائِي كَلامٌ، وعَذَابِي كَلامٌ، إذا أردتُ شيئاً فإنما أقول له كُنْ فيكون»[2].

فكيف يسأل الفقير العاجز ويترك الغني القادر؟ إن هذا لأعجب العجب!.

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٩٤/٤، ١٩٩٥) ووقع في (ش) و(ل) و(ض) و(ط): «إذا غمس في البحر»، والمثبت من (ب) وصحيح مسلم.

(٢) أخرج هذه الزيادة أحمد (١٥٤/٥، ١٧٧، ٢٩٧) والترمذي (٢٤٩٥) وابن ماجه (٤٢٥٧) وإسنادها ضعيف فيها شهر بن حوشب.

قال بعض السلف: إني لأستحي من الله أن أسأله الدنيا وهو مالكها فكيف أسألها من لا يملكها. يعني المخلوق.

وحصل لبعض السلف ضيق في معيشته[1] حتى هم أن يطلب من بعض إخوانه، فرأى في منامه قائلاً يقول:

أيحسن بالحرِّ المريد. إذا وجد عند الله ما يريد. أن يميل بقلبه إلى العبيد. فاستيقظ وهو من أغنى الناس قلباً[2].

وقال بعض السلف: قرأت في بعض الكتب المنزلة: «يقول الله عز وجل: يُؤمَّلُ غيري للشدائدِ! والشدائد بيدي وأنا الحي القيوم. ويرجّى غيري ويطرق بابه بالبُكرات! وبيدي مفاتيح الخزائن، وبابي مفتوح لمن دعاني. من ذا الذي أمّلني لنائبة فقطعت به! أو من ذا الذي رجاني لعظيم فقطعت رجاءه! ومن ذا الذي طرق بابي فلم أفتحه له؟ أنا غاية الآمال، فكيف تنقطع الآمال دوني؟! أبخيل أنا؟! فيُبخِّلني عبدي! أليس الدنيا والآخرة والكرم والفضل كله لي؟! فما يمنع المؤملين أن يؤمِّلوني! لو جمعت أهل السموات وأهل الأرض ثم أعطيت كل واحد منهم ما أعطيت الجميع وبلَّغت كل واحد منهم أمله لم ينقص ذلك من ملكي عضو ذرة، وكيف ينقص ملك أنا قيِّمه؟ فيا بؤساً للقانطين من رحمتي! ويا بؤساً لمن عصاني وتوثَّب على محارمي!».

---

(١) وفي (ب) و (ل): «نفسه».

(٢) من هنا بدأ السقط في المطبوعة الماجدية إلى صفحة ١١٧ سطر ٨ من هذه الطبعة.

ومنها: أن الله يحب أن يُسأل، ويغضب على من لا يسأله فإنه يريد من عباده أن يرغبوا إليه ويسألوه ويدعوه ويفتقروا إليه، ويحب الملحين في الدعاء.

والمخلوق غالباً يكره أن يُسألَ لفقره وعجزه، قال ابن السماك: لا تسأل من يفر منك وأسأل من أمرك أن تسأله.

قال أبو العتاهية:

اللهُ يَغْضَبُ إن تَرَكْتَ سُؤَالَهُ ... وبُنَيّ آدَمَ حينَ يُسأَلُ يَغْضَبُ
فاجْعَل سُؤالَكَ للإلَهِ فَإنَّما ... في فَضْلِ نِعْمَةِ رَبِّنَا نَتَقَلَّبُ

كان يحيى بن معاذ يقول: يا من يغضب على من لا يسأله لا تمنع من قد سألك.

وأنشد بعض الأعراب:

أَيَا مَالِكَ لا تسألِ النَّاس والتَمِسْ
يَكْفِيكَ فَضْلُ اللَّهِ فَاللَّهُ أَوْسَعُ
وَلَوْ يُسْأَلُ النَّاسُ التُّرابَ لأَوْشَكُوا
إذا قِيلَ هاتُوا أن يَمَلُّوا ويَمْنَعُوا

ومنها: أن الله تعالى يستدعي من عباده سؤاله، وينادي كل ليلة: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأستجيب له؟[1] وقد قال الله تعالى:

---

(١) تواتر ذلك عن النبي ﷺ فقد رواه جمع كبير من أصحابه منهم أبو هريرة أخرج حديثه مالك في الموطإ (١/٢١٤) والبخاري (٣/٢٩، ١١/١٢٩، =

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فأي وقت دعاه العبد وجده سميعاً قريباً مجيباً ليس بينه وبينه حجاب ولا بواب، وأما المخلوق فإنه يمتنع بالحجاب والأبواب ويعسر الوصول إليه في أغلب الأوقات.

قال طاووس لعطاء: إياك أن تطلب حوائجك إلى من أغلق دونك بابه ويجعل دونها حجابه، وعليك بمن بابه مفتوح إلى يوم القيامة، أمرك أن تسأله ووعدك أن يجيبك. وقال وهب بن منبه لبعض العلماء: ألم أُخبر أنك تأتي الملوك وأبناء الملوك تحمل إليهم علمك؟! ويحك تأتي من يغلق عليك بابه، ويظهر لك فقره ويواري عنك غناه! وتدعُ من يفتح لك بابه بنصف الليل وبنصف النهار ويظهر لك غناه؟ ويقول:

﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

ورأى ميمون بن مهران الناس مجتمعين على باب بعض الأمراء فقال: من كانت له حاجة إلى سلطان فحجبه فإن بيوت الرحمٰن مُفتَّحة، فليأت مسجداً فليصل ركعتين ثم ليسأل حاجته.

وكان بكر المزني يقول: من مثلك يا ابن آدم؟! متى شئت تطهرت ثم ناجيت ربك ليس بينك وبينه حجاب ولا ترجمان. وسأل رجل بعض الصالحين أن يشفع له في حاجة إلى بعض

= ١٣/٤٦٤) ومسلم (١/٥٢١) ويراجع كتاب «شرح حديث النزول» لشيخ الإسلام ابن تيمية.

المخلوقين، فقال له: أنا لا أترك باباً مفتوحاً، وأذهب إلى باب مغلق. وفي هذا المعنى يقول بعضهم:

وَأَفْنِيَةُ المُلُوكِ مُحَجَّباتٌ ... وَبَابُ الله مَبْذُولُ الفِنَاءِ

وقال آخر:

قُلْ للذينَ تَحَصَّنوا عن سَائلٍ ... بِمَنَازِلٍ مِنْ دُونِهَا حُجَّابُ
إن حَالَ دونَ لقائِكُم بَوَّابُكُمْ ... فاللَّهُ ليْسَ لِبَابِهِ بوّابُ

ولبعض العلماء[1]:

لا تَجْلِسَنَّ بِبَابِ مَنْ ... يَأْبَى عَلَيْكَ دُخُولَ دَارِه
وتَقُولُ حَاجتي إلَيْهِ ... يَعُوقُهَا إن لم أُداره
واتْرُكْهُ واقْصِد رَبَّهَا ... تُقْضَى وَرَبُّ الدَّارِ كَارِه

وخرَّج ابن أبي الدنيا من حديث أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: إنَّ بني فُلانٍ أَغَارُوا عَليَّ فَذَهَبُوا بِابْني وإبِلِي. فقال له النبي ﷺ: «إنَّ آل مُحَمَّدٍ كَذَا وَكَذَا أَهْل بَيْتٍ ما لَهُم مُدٌّ مِنْ طَعَامٍ أو صَاع»، فسَلِ الله عز وجل فَرَجَعَ إلى امرَأَتِهِ، فقالت: مَا قَالَ لَكَ؟ فَأَخْبَرَهَا، فقالت: نِعْمَ ما ردَّ عَلَيْكَ، فما لَبِثَ أن رَدَّ الله عليه ابنه وإبله أوفَرَ ما كانت، فأتى النبي ﷺ فأخبره فصعد النبي ﷺ المنبر فحمد الله وأثنى عليه وأمر النَّاس بمسألة الله عز وجل والرغبة إليه، وقرأ عليهم:

---

(١) هو ابن قدامة كما في ترجمته من البداية والنهاية لابن كثير (١٣/ ١٠٠).

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾
[الطلاق: ٢، ٣][(١)].

وسأل رجل ثابتاً البناني أن يشفع له إلى قاض في قضاء حاجة له، فقام ثابت معه، فكان كلما مر بمسجد في طريقه دخل فصلى فيه ودعا، فما وصل إلى مجلس القاضي إلاَّ وقد قام منه، فعاتبه طالب الحاجة في ذلك، فقال: ما كنت إلاَّ في حاجتك. فقضى الله حاجته، ولم يحتج إلى القاضي.

وكان إسحاق بن عباد البصري نائماً فرأى في منامه قائلاً يقول له: أغث الملهوف. فاستيقظ فسأل: هل في جيرانه محتاج؟ قالوا: ما ندري؟ ثم نام فأتاه ثانياً وثالثاً، فقال له: أتنام ولم تغث الملهوف؟ فقام وأخذ معه ثلاثمائة درهم، وركب بغله فخرج به إلى البصرة حتى وقف به على باب مسجد يصلي فيه على الجنائز، فدخل المسجد فإذا رجل يصلي فلما أحسَّ به انصرف فدنا منه، فقال له: يا عبد الله! في هذا الوقت؟ في هذا الموضع؟ ما حاجتك؟ قال: أنا رجل كان رأس مالي مائة درهم فذهبت من يدي ولزمني دين مائتا درهم، فأخرج له الدراهم، وقال: هذه ثلاثمائة درهم خذها فأخذها ثم قال له: أتعرفني؟ قال: لا. قال: أنا إسحاق بن عباد، فإن نابتك نائبة فأتني فإن منزلي في موضع كذا. فقال له: رحمك الله إن نابتنا نائبة فزعنا إلى من أخرجك في هذا الوقت حتى جاء بك إلينا.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة (١/١٣٤/ ب) ومن طريقه التنوخي في الفرج بعد الشدة (١/٨٧) والبيهقي في دلائل النبوة (٦/١٠٧) عن أبي عبيدة معضلاً والمعضل من أقسام الحديث الضعيف.

وقال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم: أصبحنا ذات يوم فقالت أمي لأبي: والله ما في بيتك شيء يأكله ذو كبد. فقام فتوضأ ولبس ثيابه ثم صلّى في بيته، قال: فالتفتت إليَّ أمي، فقالت: إن أباك ليس يزيد على ما ترى، فاخرج أنت. فخرجت، فخطر ببالي صديق لنا تمّار فجئت إلى سوقه، فلما رآني صاح بي وذهب بي إلى منزله وأطعمني، ثم أخرج لي صرة فيها ثلاثون ديناراً من غير أن أذكر له شيئاً من حالنا إلاَّ ابتداءً منه. وقال: اقرأ على أبيك السلام، وقل له: إنا جعلنا له شركاً في كل شيء من [متجرنا][١] وهذا نصيبه منه.

وعن شقيق البلخي قال: كنت في بيتي قاعداً فقال لي أهلي: قد ترى ما بهؤلاء الأطفال من الجوع، ولا يحل لك أن تحمل عليهم ما لا طاقة لهم به قال: فتوضأت، وكان لي صديق لا يزال يقسم عليَّ بالله أن يكن لي حاجة أعلمه بها ولا أكتمها عنه فخطر ذكره ببالي، فلما خرجت من المنزل مررت بالمسجد فذكرت ما روي عن أبي جعفر، قال: من عرضت له حاجة إلى مخلوق فليبدأ فيها بالله عز وجل. فدخلت المسجد فصليت ركعتين، فلما كنت في التشهد أفرغ عليَّ النوم، فرأيت في منامي أنه قيل: يا شقيق أتدل العباد على الله ثم تنساه! فاستيقظت وعلمت أن ذلك تنبيه نبهني به ربي، فلم أخرج من المسجد حتى صليت العشاء الآخرة ثم انصرفت إلى المنزل فوجدت الذي أردت

(١) وفي(ب) و(ل): «تجرنا»، والمثبت من (ش) و(ض).

أن أقصد[1] قد حركه الله وأجرى لأهلي على يديه ما أغناهم.

وعن إبراهيم بن أدهم أنه خرج إلى الغزو مع أصحابه، وأنهم تناهدوا [فوضع][2] كل واحد منهم ديناراً، ففكر فيمن يقصد من إخوانه ويستقرض منه ثم استفاق فبكى، واسوأتاه أطلب من العبيد، وأترك مولاهم فيقول لي: من كان أحق أن يطلب منه: أنا أو عبدي؟ فتوضأ وصلّى وخرّ ساجداً، وقال: يا رب! قد علمت ما كان مني وذلك بخطئي وجهلي فإن عاقبتني عليه فأنا أهل لذلك، وإن عفوت عني فأنت أهل لذلك، وقد عرفت حاجتي فاقضها برحمتك. ثم رفع رأسه فإذا هو بنحو أربعمائة دينار فتناول منها ديناراً واحداً وذهب.

وعن أصبغ بن زيد، قال: مكثت أنا ومن عندي ثلاثاً لم نطعم شيئاً، فخرجت إليَّ ابنتي الصغيرة وقالت: يا أبة! الجوع! فأتيت الميضأة فتوضأت وصليت ركعتين وأُلهِمت دعاءً دعوت به في آخره: اللهم افتح عليّ منك رزقاً لا تجعل لأحد عليّ فيه منة، ولا لك علي في الآخرة فيه تبعة، برحمتك يا أرحم الراحمين. ثم انصرفت إلى البيت، فإذا بابنتي الكبيرة قد قامت إليَّ وقالت: يا أبة جاء عمي الساعة بهذه الصرة من الدراهم وبحمَّال عليه دقيق، وحمَّال عليه من كل شيءٍ في السوق، وقال: أقرئوا أخي السلام، وقولوا له: إذا احتجت إلى شيء فادع بهذا الدعاء تأتك حاجتك. قال أصبغ: والله ما كان لي أخ قط ولا أعرف من كان هذا القائل؟! ولكن الله على كل شيء قدير.

---

(١) وفي (ض) و(ل): «أقصده».

(٢) ما بين المعكوفين من (ش) و(ل) و(ض).

وعن الحكم بن موسى قال: أصبحت يوماً، فقالت لي المرأة: ليس عندنا دقيق ولا خبز فخرجت ولا أقدر على شيء، فقلت في الشارع: اللهم إنك تعلم أني أعلم أنك تعلم أنه لا دقيق لي ولا خبزاً. وقال: ولا دراهم فأتنا بذلك. فلقيني رجل، فقال: خبزاً تريد أو دقيقاً؟ فقلت له: أحدهما ثم مشيت نهاري أجمع لا أقدر على شيء فرجعت فقدَّم أهلي إليَّ خبزاً ولحماً واسعاً، فقلت: من أين هذا لكم؟ قالوا: من الذي وجهت به. فسكت.

وعن الأوزاعي قال: رأيت رجلاً في الطواف وهو متعلق بأستار الكعبة وهو يقول: يا رب إني فقير كما ترى، وصبيتي قد عروا كما ترى، وناقتي قد عجزت كما ترى، فما ترى يا من ترى ولا يُرى؟ فإذا بصوت من خلفه: يا عاصم! يا عاصم! الحق عمك! فقد هلك بالطائف وقد خلف ألف نعجة، وثلاثمائة ناقة، وأربعمائة دينار، وأربعة أعبد، وثلاثة أسياف يمانية، فامض فخذها فليس له وارث غيرك. قال: فقلت: يا عاصم! إن الذي دعوته لقد كان قريباً منك. قال: يا هذا أما سمعت قوله تعالى:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦][1].

والآثار والحكايات في هذا المعنى كثيرة جداً يطول ذكرها، وهي موجودة في مثل «كتاب الفرج بعد الشدة» و «كتاب مجابي الدعوة» لابن أبي الدنيا، وفي «كتاب المستصرخين بالله عند نزول

---

(١) في بعض هذه الحكايات شيء من التواكل، وعدم بذل للسبب الشرعي المطلوب، وقد رد على مثل هذه الأفكار المنتحلة من المتصوفة وبين بطلانَها ابنُ القيم في مدارج السالكين (٢/ ١٣٤) فانظره لزاماً.

البلاء» للقاضي أبي الوليد بن الصفار، و«كتاب المستغيثين بالله عند نزول البلاء» للحافظ أبي القاسم بن بشكوال الأندلسيين وفي غيرها من كتب الزهد والرقائق والتواريخ وغيرها.

وروى [الشيخ][1] أبو الفرج في «تاريخه الكبير» بإسناده عن الحسن بن سفيان الفسوي الحافظ أنه كان مقيماً بمصر مع جماعة من أصحابه يكتبون الحديث فاحتاجوا فباعوا ما معهم حتى لم يبق لهم ما يباع، وبقوا ثلاثة أيام جياعاً لا يجدون شيئاً يأكلونه وأصبحوا في اليوم الرابع وقد عزموا على المسألة لشدة الضرورة فاقترعوا على من يسأل لهم، فخرجت القرعة على الحسن بن سفيان قال: فتحيرت ودهشت ولم تسامحني نفسي بالمسألة، فعدلت إلى زاوية المسجد أصلي ركعتين طويلتين وأدعو الله ــ عز وجل ــ لكشف الضر وسياقة الفرج، فلم أفرغ من الصلاة حتى دخل المسجد رجل معه خادم في يده منديل، فقال: من منكم الحسن بن سفيان؟ فرفعت رأسي من السجود وقلت: أنا. فقال: إن الأمير ابن طولون يقرئكم السلام والتحية، ويتعذر إليكم في الغفلة عن تفقد أحوالكم والتقصير الواقع في رعاية حقوقكم، وقد بعث إليكم بما يكفي نفقة الوقت، وهو زائر لكم غداً ويعتذر إليكم بلفظه ووضع بين يدي كل واحد منّا صُرة فيها مائة دينار، قال: فتعجبنا وسألنا عن السبب، قال: إنه كان اليوم نائماً فرأى فارساً في الهواء يقول له: قم فأدرك الحسن بن سفيان وأصحابه فإنهم منذ ثلاثة أيام جياع في المسجد الفلاني فقال له: من أنت؟

(١) ما بين المعكوفين من (ش) و(ل) و(ض).

قال: أنا رضوان صاحب الجنة. قال الحسن: فشكرنا الله عز وجل وأصلحنا أحوالنا وسافرنا تلك الليلة من مصر خشية أن يزورنا الأمير، فيطلع الناس على أسرارنا فيكون ذلك سبب ارتفاع اسم، وانبساط جاه، ويتصل ذلك بنوع من الرياء والسُّمعة[1].

وروي أيضاً بإسناد له عن محمد بن هارون الروياني أنه اجتمع هو ومحمد بن نصر المروزي ومحمد بن علوية الورَّاق ومحمد بن إسحاق بن خزيمة فذكر معنى هذه الحكاية وأن المصلي والداعي كان هو ابن خزيمة، وبإسناد آخر أن الأربعة كانوا محمد بن جرير، ومحمد بن نصر، ومحمد بن خزيمة، ومحمد بن هارون[2].

• • •

(١) المنتظم لابن الجوزي (٦/١٣٤).
(٢) المنتظم (٦/١٨٥، ١٨٦).

وقوله ﷺ: «وإِذَا اسْتَعَنْتَ فاستَعِنْ باللَّهِ»

لمَّا أمر ــ عليه السلام ــ بحفظ الله والتعرف إليه في الرخاء وذلك هو العبادة حقيقة ثم أرشد إلى سؤال الله وحده ودعائه، «والدعاء هو العبادة» كما في حديث النعمان بن بشير عن النبي ﷺ ثم قرأ:

« ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ . .﴾ الآية،[غافر:٦٠] ».

خرَّجه أهل السنن الأربعة[1]، أرشد بعد ذلك إلى الاستعانة بالله وحده وهذا منتزع من قوله تعالى:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وهي كلمة عظيمة جامعة يقال: إن سر الكتب الإلهية كلها ترجع إليها وتدور عليها.

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٢٩٨) والطيالسي (١٢٥٢ ــ منحة) وابن أبي شيبة في المصنف (١٠/٢٠٠) وأحمد (٤/٢٦٧، ٢٧١، ٢٧٦، ٢٧٧) والبخاري في الأدب المفرد (٧١٤) وأبو داود (١٤٧٩) والترمذي (٣٣٧٢) والنسائي في الكبرى كما في تحفة الأشراف (٩/٣٠) وابن ماجه (٣٨٢٨) وابن جرير في تفسيره (٢٤/٥١، ٥٢) وابن الأعرابي في المعجم (١٢٠/ب) وابن حبان (٢٣٩٦) والطبراني في الصغير (٢/٩٧) وفي الدعاء (٣/ب) والحاكم (١/٤٩٠، ٤٩١) والقضاعي في مسند الشهاب (٢٩، ٣٠) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وكذا صححه النووي في الأذكار (ص ٣٣٣) وهو كما قالوا.

وفي استعانة الله وحده فائدتان:

إحداهما: أن العبد عاجز عن الاستقلال بنفسه في عمل الطاعات.

والثانية: أنه لا معين له على مصالح دينه ودنياه إلَّا الله عز وجل، فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله الله فهو المخذول.

وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «احْرِصْ عَلَى ما يَنْفَعُكَ، واسْتَعِن بالله ولا تَعْجَز»[1]، وكان ﷺ يقول في خطبته ويعلم أصحابه أن يقولوا: «الحَمْدُ لله نَسْتَعِينُهُ ونَسْتَهديه»[2]، وأمر معاذ بن جبل أن لا يدع في دبر كل صلاة أن يقول: «اللَّهُم أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وشُكْرِك، وحُسْنِ عِبَادَتِكَ»[3]، وكان من دعائه ﷺ: «يا رَبِّ أَعنِّي ولا تُعِنْ عليَّ»[4]، وفي دعاء القنوت الذي كان يقنت

(١) أخرجه مسلم (٤/٢٠٥٢) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه مسلم (٢/٥٩٣) عن ابن عباس. ولفظة: «ونستهديه» أخرجها الشافعي (٤٢٧ ــ المسند بترتيب السندي) والبيهقي في معرفة السنن والآثار (٢/١٠٢/ب ــ نسخة أحمد الثالث) وإسنادها ضعيف جداً؛ فيه إبراهيم بن محمد الأَسْلَمي متروك الحديث وقد كذبه غير واحد من الأئمة.

(٣) أخرجه أحمد (٥/٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٧) وأبو داود (١٥٢٢) والنسائي (٣/٥٣) وفي عمل اليوم والليلة (١٠٩) وابن السني في عمل اليوم والليلة (١١٨) وابن خزيمة في صحيحه (١/٣٦٩) وابن حبان (٢٣٤٥، ٢٠١١) والطبراني في الكبير (٢٠/٦٠) والحاكم (١/٢٧٣) وأبو نعيم في الحلية (٥/١٣٠) وإسناده صحيح.

(٤) أخرجه أحمد (١/٢٢٧) والبخاري في الأدب المفرد (٦٦٥) وأبو داود (١٥١٠) والترمذي (٣٥٥١) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٦٠٧) =

به عمر وغيره: اللهم إنا نستعينك ونستهديك[1]. وفي الأثر المعروف ويقال أن موسى ــ عليه السلام ــ قاله لما ضرب البحر فانفلق: «اللَّهم لَكَ الحَمْدُ وإليكَ المُشْتَكى، وأَنْتَ المُسْتَعانُ وَبِكَ المُسْتَغَاثُ، وعَلَيْكَ التُّكْلان، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بِكَ[2].

فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات، وترك المحظورات، وفي الصبر على المقدورات كما قال يعقوب ــ عليه السلام ــ لبنيه:

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

ولهذا قالت عائشة هذه الكلمة لما قال أهل الإفك ما قالوا فبرأها الله مما قالوا[3]. وقال موسى لقومه:

﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وقال الله لنبيه محمد ﷺ:

﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٢].

ولمَّا بَشَّر ﷺ عثمان بالجنة على بلوى تصيبه قال: الله

= وابن ماجه (٣٨٣٠) وابن أبي عاصم في السنة (٣٨٤) وابن حبان (٢٤١٤) من حديث ابن عباس وإسناده صحيح.

(١) أخرجه بنحوه الطحاوي في معاني الآثار (١/ ٢٥٠) وإسناده جيد.

(٢) أخرجه بنحوه الطبراني في الأوسط كما في مجمع البحرين (رقم ٤٦٩٦ ط الرياض)، وفي الصغير (١٢٢/١) من حديث ابن مسعود مرفوعاً، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٣/١٠): «وفيه من لم أعرفهم». اهـ.

(٣) يأتي إن شاء الله تخريج حديث الإفك (ص ١٣٤).

المستعان[1]، ولما دخلوا على عثمان وضربوه جعل يقول والدماء تسيل عليه: لا إله إلاَّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، اللهم إني أستعينك عليهم وأستعينك على جميع أموري، وأسألك الصبر على ما ابتليتني.

وروي عن أبي طلحة أن النبي ﷺ قال في بعض غزواته حين لقي العدو: «يَا مالك يَوْمِ الدِّين، إيَّاك نَعْبُد وإيَّاكَ نَستَعِين» قال أبو طلحة: فلقد رأيت الرجال تصرعُ. خرَّجه أبو الشيخ الأصبهاني[2].

فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله في مصالح دينه وفي مصالح دنياه، كما قال الزبير في وصيته لابنه عبد الله بقضاء دينه: إن عَجزتَ فاستعن بمولاي. فقال له: يا أبت من مولاك؟ قال: الله، قال: فما وقعت في كُربة من دينه إلاَّ قلت: يا مولى الزبير اقض عنه دينه فيقضيه[3].

وقال عمر بن الخطاب في أول خطبة خطبها على المنبر: ألا إن العرب جمل آنف قد أخذت بخطامه، وإني حامله على المحجة ومستعين بالله عليه.

---

(١) أخرج هذه الرواية مسلم في صحيحه (٤/١٨٦٧).

(٢) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (٣٣٤) والطبراني في الأوسط كما في المجمع (٥/٣٢٨) وأبو نعيم في دلائل النبوة (٢/٥٩٢) وإسناده ضعيف، قال الهيثمي في المجمع (٥/٣٢٨): «وفيه عبد السلام بن هاشم وهو ضعيف». اهـ. وفيه كذلك حنبل بن عبد الله مجهول كما في الميزان (١/٦١٩).

(٣) أخرجه البخاري (٦/٢٢٧).

وكذلك يحتاج العبد إلى الاستعانة بالله على أهوال ما بين يديه من الموت وما بعده.

لما احتضر خالد بن الوليد قال رجل ممن حوله: والله إنه ليسؤه يعني: الموت. قال خالد: أجل فأستعين الله عز وجل. وبكى عامر بن عبد الله بن الزبير عند موته وقال: إنما أبكي على حر النهار وبرد القيام ـ يعني: صيام النهار وقيام الليل ـ ، وقال: وإني أستعين الله على مصرعي هذا بين يديه. ومن كلام بعض المتقدمين: يا رب عجبت لمن يعرفك كيف يرجو غيرك! عجبت لمن يعرفك كيف يستعين بغيرك!.

كتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز: لا تستعن بغير الله فيكلك الله إليه.

وقال بعضهم: فاستغن بالله واستعنه فإنه خير مستعان.

● ● ●

وقوله ﷺ: «جَفَّ القَلَمُ بما هو كائِنٌ»
وفي الـروايـة الأُخـرى: «رُفِعَتِ الأَقْـلَامُ وجَفَّتِ الكُتُبُ»[1]
وفي الرواية الأُخرى: «وجَـفَّـتِ الصُّـحُـفُ»

كلّه كناية عن نفوذ المقادير وكتابتها جميعها في كتاب جامع من أمد بعيد، فإن الكتاب إذا كتب وفرغ من كتابته وبَعُد عهده فقد رفعت الأقلام عنه التي كتبت به وجفت الأقلام التي كتب بها[2] من مدادها وجفت الصحيفة المكتوب به فيها.

وهذا من أحسن الكنايات وأبلغها وقد دل الكتاب والسنن[3] الصحيحة على مثل هذا المعنى قال الله عز وجل:

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ[4] أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد: ٢٢].

(١) لفظ: «جفت الكتب» لم أقف عليه فلعله في الطرق التي لم أستطع الوقوف على تخريجها والله أعلم.

(٢) وفي (ش): «به»، وقد سقط من (ل) من قوله: «وجفت...» إلى قوله: «من مدادها».

(٣) وفي (ل) و(ض): «السنة».

(٤) سقطت هذه الكلمة من (ب).

قال الضحاك عن ابن عباس: إن الله خلق القلم فأمره ليجري بإذنه، وعِظَم قدر القلم كقدر ما بين السماء والأرض، فقال القلم: بم يا رب أجري؟ قال: بما أنا خالق وكائن في خلقي من قطر أو نبات أو نفس أو أثر ـ يعني به العمل ـ أو رزق أو أجل. فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة فأثبته الله في الكتاب المكتوب عنده تحت العرش.

روى أبو ظبيان عن ابن عباس: أن أول شيء خلقه الله القلم، فقال له: اكتب قال: وما أكتب؟ قال: القدر، فجرى بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة ثم قرأ:

﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم: ١، ٢][١].

وروى أبو الضحى عن ابن عباس نحوه أيضاً[٢]. وروي حديث أبي الضحى مرفوعاً ولا يثبت رفعه[٣]. وروى ابن بطّة بإسناد ضعيف عن أبي هريرة مرفوعاً: «أولُ شَيءٍ خَلَقَهُ اللَّهُ القَلَمُ ثُمَّ خَلَقَ النُون، وهي الدَّوَاة ثُمَّ قال: اكتُبْ، قال: ما أَكْتُب؟ قال: اكتُبْ ما هو كائنٌ إلى يوم القيامة. فذلك قوله عز وجل:

﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٩/٩، ١٠).

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٩/١٠) وفي إسناده شيخ ابن جرير ـ محمد بن حُميد الرازي ـ حافظ ضعيف كما في التقريب.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/٤٣٣) من حديث ابن عباس وإسناده ضعيف؛ فيه مؤمل بن إسماعيل صدوق سيىء الحفظ.

ثم ختم على القلم فلم ينطق ولا ينطق إلى يوم القيامة»[1].

وخرَّج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي من حيث عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «إن أول ما خَلَقَ الله القَلَم ثُمَّ قال: اكتُب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة»[2].

وفي «صحيح مسلم» عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الله كَتَبَ مقادير الخَلاَئِق قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّموات والأرضَ بِخَمْسِين أَلْفَ سنةٍ»[3].

وخرَّج الإمام أحمد والترمذي والنسائي من حديث عبد الله بن عمرو قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان فقال: «أَتَدْرون ما هَذَانِ الكِتَابَان؟» فَقُلْنا: لا يَا رَسُولَ الله، إلاَّ أَنْ تُخْبِرَنا، فقال: لِلَّذِي في يَدِه اليُمنى: «هَذا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِين فيه أَسْمَاءُ أهل الجَنَّة وأَسْمَاءُ أبائِهم وقَبائِلِهم ثُمَّ أَجْمَلَ على آخرِهِم فلا يُزادُ فِيهم ولا يَنْقُص مِنهُم أبداً» ثُمَّ قال للذي في شماله: «هَذا كِتَابٌ من رَبِّ العَالَمين فيه أسماءُ أَهْلِ النَّارِ وأَسْمَاءُ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره كما في تفسير ابن كثير (٤٠١/٤) والحكيم الترمذي كما في اللآليء المصنوعة (١٣١/١) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٤٧/١٧/ب) وإسناده ضعيف؛ فيه الحسن بن يحيى الخشني صدوق كثير الغلط كما في التقريب كما أن فيه من لم أجد له ترجمة، وقد استغرب الحديث جداً ابن كثير في تفسيره.

(٢) أخرجه أحمد (٣١٧/٥) وأبو داود (٤٧٠٠) والترمذي (٢١٥٥) وهو حديث صحيح، وقد توسعت في الكلام على طرقه في تحقيقي لكتاب الأوائل لابن أبي عاصم انظر (ص ٥٩، ٦٠ ــ ط دار الخلفاء بالكويت).

(٣) أخرجه مسلم (٢٠٤٤/٤).

أبـائِهِم وقَبَائِلِهم ثُمَّ أَجْمَـلَ على آخـرِهِم فَـلاَ يُـزَادُ فيهم ولا يَنْقُصُ مِنْهُمْ أَبداً». فقال أصْحَابُهُ: فَفِيمَ العَمَلُ يا رسول الله إِنْ كَانَ أَمْرٌ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ؟ فقال: «سَدِّدُوا وقَارِبوا فإنَّ صَاحِبَ الجَنَّة يُخْتَمُ لَهُ بعَمَـلِ أهلِ الجَنَّةَ وإن عَمِلَ أيَّ عَمَلٍ، وإن صَاحِب النَّار يُخْتَم لـه بِعَمَل أَهْلِ النَّار وإِنْ عَمِلَ أيَّ عَمَل». ثُمَّ قال رسول الله ﷺ بيديه فنبذهما ثم قـال: «فَـرَغَ رَبُّكُمُ من العِبَـاد، فَـريقٌ في الجَنَّـة، وفـريقٌ في السَّعير»[1].

وخرَّج الإمام أحمد من حديث أبي الـدرداء عن النبـي ﷺ: «فَرَغَ الله إلى كُلِّ عَبْـدٍ مِنْ خَمْسٍ من أَجَلِهِ وَرِزْقِهِ وَأَثَـرِهِ ومَضْجَعِهِ وَشَقِيٍّ أو[2] سَعِيدٍ»[3].

وخـرَّج الإمام أحمـد والترمـذي من حـديث ابن مسعـود عن النبـي ﷺ قـال: «خَلَقَ اللَّهُ كُـلَّ نَفْسٍ وَكَتَبَ حَيَـاتَهَـا ورِزْقَهَـا ومَصَائِبَها»[4].

---

(١) أخرجه أحمد (٢/١٦٧) وابن وهب في كتاب القدر (١٣) والترمذي (٢١٤١) وصححه النسائي في الكبرى كما في تحفة الأشراف (٦/٢٤٣) والدارمي في الـرد على الجهميـة (ص ١٢٦، ١٢٧) وابن أبـي عـاصم في السنـة (٣٤٨) وابن جرير في تفسيره (٢٥/٧) وأبو نعيم في الحلية (٥/١٦٨) وإسناده جيد.

(٢) وفي مسند أحمد: «أم».

(٣) أخـرجـه أحمـد (٥/١٩٧) وابن أبـي عـاصم في السنـة (٣٠٤) وعبـد الله بن أحمـد في السنـة (٨٥٩) وإسنـاده صحيح، وأخـرجـه أحمـد (٥/١٩٧) وابن أبـي عاصم (٣٠٣) ولفظه: «إن الله عز وجل فرغ إلى كل عبـد من خلقه من خمس من أجله وعمله ومضجعـه وأثـره ورزقـه». وفي إسنـاده الفـرج بن فضالة وهو ضعيف.

(٤) أخرجه أحمد (١/٤٤٠) والترمذي (٢١٤٣) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/٣٠٨) وإسناده صحيح.

وخـرَّج مسلم من حديث جـابر أن رجـلاً قال: يـا رسول الله فيم العمل اليوم أفيما جفَّت به الأقـلام وجرت بـه المقاديـر أم فيما نستقبل؟ قال: «لاَ. بَلْ فِيما جَفَّت بِـهِ الأَقْلاَم وَجَـرَت بِهِ المَقَـادِير» قال: فَفِيمَ العَمَلُ؟ قال: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ»[1].

وفي هـذا المعنى أحـاديث كثيـرة جـداً، وكـذلـك الآثـار الموقوفة. وقال بعضهم:

سَلِّمْ الأَمْـرَ كُلَّهُ جَفَّ بـالكَـائِـنِ القَـلَمْ
إنَّ للنَّـاسَ خَـالِقـاً لا مَـرَدَّ لِمَـا حَكَمْ

● ● ●

---

(١) أخرجه مسلم (٤/٢٠٤٠، ٢٠٤١).

وقـوله ﷺ بعـد هذا: «فَلَو أَنَّ الخَلْق جَميعاً أَرادوا أن يَنْفَعوكَ بشيءٍ لَمْ يَقْضِه الله لَمْ يَقـدِروا عليـه، وإنْ أرادوا أنْ يَضُرُّوكَ بِشيءٍ لَمْ يَكتُبـه الله عليـكَ لَمْ يَقدِروا عليه»

يريد بذلك أن مـا يصيب العبد ممـا يضره أو ينفعـه في دنياه فكله مقدر عليه، ولا يمكن أن يصيبه ما لم يكتب له ولم يقدر عليه ولـو اجتهد على ذلـك الخلق كلهم جميعاً، وقـد دلّ القـرآن أيضـاً على مثل هذا في قوله تعالى:

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١].

وقوله:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [الحديد: ٢٢].

وقوله:

﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وخـرَّج الإمام أحمـد من حديث أبـي الـدراء عن النبـي ﷺ

قال: «إنَّ لِكُلِّ شيءٍ حَقِيقةً وَمَا بَلَغَ عَبْـدٌ حَقِيقَةَ الإِيمـانِ حَتىً يَعْلَمَ أنَّ ما أصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخطِئَهُ وما أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبُهُ»(١). وخـرَّج أبـو داود وابن ماجـه من حديث زيـد بن ثابت عن النبـي ﷺ معنـاه أيضاً(٢).

واعلم أن مدار جميع هذه الوصية من النبـي ﷺ لابن عباس على هذا الأصل، وما بعده وما قبله متفرع عليه وراجع إليـه، فإنـه إذا علم العبد أنه لن يصيبه إلَّا ما كتب الله له من خير أو شر أو نفع أو ضر، وأن اجتهاد الخلق كلهم جميعـاً على خلاف المقـدور غير مفيد شيئاً البتة، علم حينئذٍ أن الله تعـالى وحده هـو الضار والنـافع والمعـطي المانـع، فأوجب ذلـك للعبد تـوحيد ربـه ـ عزَّ وجـلَّ ـ وإفـراده بـالاستعـانـة والسؤال والتضـرع والابتهـال، وإفـراده أيضـاً بالعبادة والطاعة. لأن المعبود إنما يقصد بعبادته جلب المنافع ودفع المضار، ولهذا ذم الله سبحانه من يعبد ما لا ينفع ولا يضر ولا يغني عن عابده شيئاً، وأيضاً فكثيـر ممن لا يحقق الإيمان في قلبـه يقدّم طاعة مخلوق على طاعة الله رجـاء نفعه أو دفعـاً لضره. فـإذا تحقق العبد تفرد الله وحده بالنفـع والضر وبـالعطاء والمنـع، أوجب ذلك إفـراده بالـطاعة والعبـادة، ويقدم طـاعتـه على طـاعـة الخلق كلهم

---

(١) أخرجه أحمد (٦/٤٤١، ٤٤٢) وابن أبـي عاصم في السنة (٢٤٦) والطبراني كما في المجمع (٧/١٩٧) وإسناده حسن.

(٢) أخـرجـه أحمـد (٥/١٨٥، ١٨٩) وأبـو داود (٤٦٩٩) وابن مـاجـه (٧٧) وابن أبـي عاصم في السنة (٢٤٥) والطبراني في الكبير (٥/١٧٨) وابن حبان (١٨١٧) وإسنـاده حسن ولـه طـريق أخرى عنـد الآجري في الشـريعـة (ص١٨٧) إلَّا أن فيها أبا صالح عبد الله بن صالح، كاتب صدوق كثيـر الغلط.

جميعاً، كما يوجب ذلك أيضاً إفراده سبحانه بالاستعانة به، والطلب منه.

وقد اشتملت هذه الوصية العظيمة الجامعة على هذه الأمور المهمة كلها.

فإن حفظ العبد لله عزَّ وجلّ هو حفظ حدوده ومراعاة حقوقه وهو حقيقة عبادته، وهو أول ما صُدِّرت به هذه الوصية. ورُتِّب على ذلك حفظ الله لعبده، وهو نهاية ما يطلبه العبد من ربه ويريده منه. ثم عقّب ذلك بذكر التعرف إلى الله في الرخاء، وأنه مقتض لمعرفة الله لعبده في الشدة وهذا هو من تمام حفظ الله لعبده وداخل فيه، إلّا أن حالة الشدة لما كان العباد مضطرين فيها إلى من يعرفهم ويفرج عنهم خُصَّت بالذكر لهذا المعنى. وفي هذه الحالة يُخلص المشركون الدعاء لله وحده، ويُفردونه بالسؤال والطلب لعلمهم أنه لا يكشف الضر سواه سبحانه، ثم يعودون عند كشف الضر عنهم إلى الشرك كما ذكر سبحانه ذلك عنهم في مواضع من كتابه وذمهم عليه. فأمر ﷺ بمخالفتهم في ذلك بالتعرف إلى الله في حال الرخاء بإخلاص الدين له وحده وبطاعته والتقرب إليه، ليوجب ذلك معرفته لهم في الشدة وكشفها عنهم.

ثم عقب ذلك بذكر إفراد الله بالسؤال، وإفراده بالاستعانة وذلك يشتمل حال الشدة وحال الرخاء. ثم ذكر بعد هذا كله الأصل الجامع الذي تنبني[1] عليه هذه المطالب، وهو: تفرد الله

(١) في (ب) و(ل): «يبني»، وفي (ش): «تبتني».

سبحانه وتعالى بالضر والنفع والعطاء والمنع، وأنه لا يصيب العبد ذلك كله إلَّا ما سبق تقديره وقضاه له، وأن الخلق كلهم عاجزون عن إيصال نفع أو ضر غير مقدر في الكتاب السابق.

وتحقيق هذا يقتضي انقطاع العبد عن التعلق بالخلق، وعن سؤالهم واستعانتهم ورجائهم بجلب نفع أو ضر، وخوفهم من إيصال ضر أو منع نفع، وذلك يستلزم إفراد الله سبحانه بالطاعة والعبادة أيضاً، وأن تُقدّم طاعته على طاعة الخلق جميعاً، وإن يُتقى سخطه ولو كان فيه سخط الخلق جميعاً. وقد جاء في حديث أبي سعيد مرفوعاً: «إنَّ مِنْ ضَعْفِ اليَقين أن تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ الله، وأن تَحْمَدَهُم على رزق الله، وأن تَذُمَّهُم على ما لم يُؤْتِكَ الله، إنَّ رِزْقَ اللَّهِ لا يجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ ولا يَرُدُّهُ كَرَاهَةُ كارِهٍ»[1].

وما أحسن قول بعضهم:

فَلَيْتَكَ تَحْلُو والحَيَاةُ مَرِيرَةٌ ... وَلَيتَكَ تَرْضَى والأَنامُ غِضَابُ
ولَيْتَ الذي بيني وبَينَكَ عَامِرٌ ... وبَيني وبَينَ العَالَمِينَ خَرَابُ
إذا صَحَّ مِنْكَ الودُّ فالكُلُّ هَينٌ ... وكُلُّ الذي فَوْقَ التُّرابِ تُرابُ

فمن تحقق أن كل مخلوق فوق التراب فهو تراب، فكيف

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٥/١٠٦) والبيهقي في شعب الإيمان (١/١٥١ ــ ط) وإسناده تالف؛ فيه محمد بن مروان السدي كذبه بعض الأئمة وفيه عطية العوفي ضعيف مدلس ولم يصرح بالتحديث. وأخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/٤١) والبيهقي في الشعب (١/١٥٢) ومداره على عطية العوفي أيضاً.

يقدم طاعة شيء من التراب على طاعة رب الأرباب؟ أم كيف يُرضي التراب بسخط الملك الوهاب إن هذا لشيء عجاب! وقد دلّ القرآن على هذا الأصل وهو تفرد الله سبحانه بالعطاء والمنع في مواضع كثيرة جداً كقوله تعالى:

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ ﴾ [فاطر: ٢].

وقوله تعالى:

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ ﴾ [يونس: ١٠٧].

وقوله تعالى:

﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٨].

وقوله تعالى حاكياً عن نبيه نوح ـ عليه السلام ـ لقومه:

﴿ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ . . . ﴾ الآية، [يونس: ٧١].

وقوله تعالى حاكياً عن نبيه هود ـ عليه السلام ـ:

﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦].

وقال بعضهم:

مَـا قَـدَّرَ الـلَّهُ لِي لاَ بُـدَّ يُـدْرِكُـني
مَنْ ذَا الـذي يَـدْفَـعُ المقْـدُورَ بـالحَـذَرِ

الـلَّهُ أَوْلَى بـنـا منـا بـأَنْـفُـسِـنـا
إنْ نـحـنُ إلاَّ مَـمَـالـيـكَ الـمُـقْـتِـدر

وشكا رجل إلى فضيل الفاقة، فقال له فضيل: أمدبراً غير الله تريد؟!.

وقال بعضهم:

دَبِّـرْ فـلَيْسَ بِـمُـغْـنٍ عَـنْـكَ تـدبيـرُ
ولَـيسَ يَعـدُوكَ بـالـتَّـدبيـر تَـقـديـرُ

إنَّ الأمـورَ لـهـا رب يُـدَبِّـرُهَـا
فَمَـا قَضىَ الـرَّبُّ سَـاقَـتْـهُ المَقَـاديـرُ

• • •

وقـولـه ﷺ : «واعـلَـمْ أَنَّ في الصَّبْرِ على ما تَكره خَيّراً كَثيراً »

وفي رواية عمر مولى غفرة ابن عباس زيادة قبـل هذا الكـلام وهي : «فإن استطعت أن تعمـل لله بالـرضا في اليقين فـافعل، وإن لم تستطيع فإن الصبر على ما تكره خيـراً كثيراً»[1]، ومـراده باليقين هـاهنا تحقيق الإيمـان بما سبق ذكـره من التقديـر السابق كمـا ورد ذلك صريحاً في رواية ابنه علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه لكن بـإسناد ضعيف وفي روايتـه زيادة وهي : قلت: يـا رسـول الله كيف أصنـع باليقين؟ : «أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ مـا أَصَـابَـكَ لَمْ يَكُنْ لِيخـطئَـكَ وأَنَّ ما أخطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيصيبكَ»[2].

فإذا أنت أحكمت باب اليقين فحصول اليقين للقلب بالقضاء السـابق والتقـديـر المـاضي يـوجب رضـا النفس بـالقضـاء والقـدر وطمـأنينتها بـه، وقد دل القـرآن على هذا المعنى بعينـه في قـولـه تعالى :

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٥].

(١) تقدم تخريجها في حديث ابن عباس (ص ٣٥).

(٢) لم أقف على روايـة علي بن عبد الله عن ابن عبـاس ولكن معنى الـروايـة قـد تقدم.

قال الضحاك في هذه الآية: عزّاهم لكيلا تأسوا على ما فاتكم، لا تأسوا على شيء من أمر الدنيا فإنا لم نقدره لكم، ولا تفرحوا بما آتاكم لا تفرحوا بشيءٍ من أمر الدنيا أعطيناكموه، فإنه لم يكن يزوي عنكم. خرَّجه ابن أبي الدنيا.

وقال سعيد بن جبير في هذه الآية: لكيلا تأسوا على ما فاتكم من العافية والخصب إذا علمتم أنه كان مكتوباً عليكم قبل أن يخلقكم. خرَّجه ابن أبي حاتم.

ومن هذا المعنى قول بعض السلف: الإيمان بالقدر يذهب الهم والحزن، وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك بقوله في الحديث الصحيح عنه: «احْرِص على مَا يَنْفَعُكَ واستعِن بالله ولا تَعْجَزْ، فإن[1] أصَابَك شيء فلا تَقُل: لو أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا ولكن قُل: قَدَرَ الله وما شاء فَعَلَ، فإنَّ لَوْ تَفتحُ عَمَلَ الشَّيطان»[2] فأشار في هذا الحديث إلى أن تذكير النفس بالقَدر السابق عند المصائب يذهب وساوس الشيطان الموجبة للهمِّ والحزن والندم على تعاطي الأسباب الدافعة لوقوعها.

وقال أنس: خدمت النبي ﷺ عشر سنين فما قال لي لشيء فعلته لم فعلت كذا وكذا؟ ولا شيء لم أفعله: ألا فعلت كذا؟!. وقال: وكان إذا لامني بعض أهله، قال: «دَعُوه فَلَوْ قُدِّرَ شَيءٌ كَانَ». خرَّجه الإمام أحمد بهذه الزيادة[3].

---

(١) كذا في (ب)، وفي صحيح مسلم: «وإن».

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٥٢/٤) من حديث أبي هريرة، وتقدَّم في (ص٩٤).

(٣) أخرجه البخاري (٣٩٥/٥، ٤٥٦/١٠، ٢٥٣/١٢) ومسلم (١٠٨٤/٤، =

وخرَّج ابن أبي الدنيا بإسناد فيه نظر عن عائشة قالت: كان أكثر كلام النبي ﷺ في بيته إذا خلا: «مَا قُضِي مِنْ أَمْر يَكُنْ»، وخرَّج أيضاً حديثاً مرسلاً أن النبي ﷺ قال لابن سعود: «لا تُكْثِر هَمَّكَ ما يُقَدَّرُ يكُنْ، وما تُرْزَقُ يأتيك»[1]، وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: « (لَا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلَّا بالله). دَوَاءٌ مِنْ تِسْعَةٍ وتِسْعِين دَاءً، أيْسَرُها: الهَمُّ». خرَّجه الطبراني والحاكم[2].

فإن تحقيق هذه الكلمة تقتضي[3] تفويض الأمور إلى الله، وأنه لا يكون إلَّا ما شاء والإيمان بذلك يذهب الهم والغم. وقد وصى النبي ﷺ رجلاً فقال: «لا تَتَّهِم الله في شيءٍ قَضَاه لك»[4].

فإذا نظر المؤمن بالقضاء والقدر في حكمة الله ورحمته، وأنه

= ١٨٠٥) بنحوه، وأما الزيادة فأخرجها أحمد (٣/٢٣١) وإسنادها ضعيف؛ وذلك لأن فيها عمران القصير ضعيف ولم يسمع من أنس.

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة (١٣٦/١/أ) وإسناده ضعيف؛ وذلك لأن فيه خالداً بن رافع روى عن النبي مرسلاً كما ذكر ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٣/٣٣٠).

(٢) ضعيف جداً، أخرجه ابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة (١٣٥/١/أ) والطبراني في الأوسط كما في المجمع (١٠/٩٨) والحاكم (١/٥٤٢) وابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/٣٤٨) وقال: «هذا حديث لا يصح. قال ابن حبان: بشر بن رافع يروي أشياء موضوعة كأنه المتعمد لها. قال أحمد: بشر ليس بشيء».

(٣) وفي (ش) و (ل): يقتضي ولعله أصح.

(٤) أخرجه أحمد (٥/٣١٩) من حديث عبادة بن الصامت وإسناده ضعيف. قال الحافظ نور الدين الهيثمي في المجمع (١/٥٩): «رواه أحمد، وفي إسناده ابن لهيعة».

غير متهم في قضائه دعاه ذلك إلى الرضا بالقضاء، وقال الله عزَّ وجلَّ:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ﴾ [التغابن: ١١].

قال علقمة في هذه الآية: هي المصيبة تصيب الرجل فيعلم أنها من عند الله فيسلّم لها ويرضى. وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال: «لَا يَقْضِي الله للْمؤمن قَضَاءً إلَّا كَانَ خيْراً لَهُ، إن أَصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ كان خيراً له، وإن أَصابَتْهُ ضَرَّاءُ فَصَبرَ كان خيراً له، وليسَ ذلك إلَّا للمؤمن»[1].

وقد دلَّ القرآن على مثل هذا المعنى في قوله تعالى:

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٥١ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِۖ﴾ [التوبة: ٥١، ٥٢].

فأخبر أنه لن يصيبهم إلَّا ما كتب لهم، فدلّ على أنه لهم بكل حال سواء كان مما يلائم أو لا يلائم، وأخبر أنه تعالى مولاهم، ومن تولاه الله لم يخذله، بل هو يتولى مصالحه، قال تعالى:

﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٤٠].

ثم عقّب ذلك بقوله:

---

(١) أخرجه مسلم (٤/٢٢٩٥) من حديث صهيب بن سنان.

﴿هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ﴾ [التوبة: ٥٢].

يعني إمَّا النصر والظفر، وإمَّا الشهادة، وأيُّهما كانَ فهو أحسن.

وخرَّج الترمذي من حديث أنس عن النبي ﷺ: «إنَّ الله إذا أَحَبَّ قوماً ابتَلاَهُم، فمن رضيَ فَلَهُ الرِّضا ومن سخِطَ فلهُ السّخطَ»[(١)].

قال أبو الدرداء: إن الله إذا قضى قضاءً أحب أن يُرضَى به، وقالت أم الدرداء: إن الراضين بقضاء الله الذين ما قضى لهم رضوا به، لهم في الجنة منازل يغبطهم بها الشهداء يوم القيامة.

وقال ابن مسعود: إن الله بقسطِهِ وعلمِهِ جَعَلَ الروح والفرحَ في اليقين والرضا، وجَعَلَ الهَمَّ والحُزْنَ في الشَّك والسُّخط. وقد روي هذا مرفوعاً من وجه ضعيف[(٢)].

وكان عمر بن عبد العزيز يقول: لقد تركتني هؤلاء الدعوات وما لي في شيء من الأمور إرب إلاَّ في مواقع قدر الله عزَّ وجلّ، وكان يدعو بها كثيراً: اللهم رضني بقضائك وبارك لي في قدرك،

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦) وابن ماجه (٤٠٣١) والبغوي في شرح السنة (٥/٢٤٥) وإسناده حسن، وأخرجه أحمد (٥/٤٢٧) من حديث محمود بن لبيد بنحوه وسنده صحيح.

(٢) أخرجه موقوفاً على ابن مسعود البيهقي في شعب الإيمان (١/١٥٢) وإسناده ضعيف؛ وذلك للانقطاع فيه بين أبي هارون واسمه موسى بن أبي عيسى وهو من أتباع التابعين فهو لم يسمع من ابن مسعود، أمَّا مرفوعاً فهو ضعيف كما تقدَّم الكلام عليه في ص ١٠٦ حاشية (١).

حتى لا أحب تعجيل شيء أخرته، ولا تأخير شيء قدمته.

وقال ابن عون: ارض بقضاء الله على ما كان من عسر ويسر فإن ذلك أقل لهمك، وأبلغ فيما تطلب من أمر آخرتك، واعلم أن العبد لن يصيب حقيقة الرضا حتى يكون رضاه عند الفقر والبلاء كرضاه عند الغنى والرخاء، كيف تستقضي الله في أمرك؟ ثم تسخط إن رأيت قضاءه مخالفاً لهواك! ولعل ما هويت من ذلك لو وفق لك لكان فيه هلاكك، وترضى قضاءه إذا وافق هواك وذلك لقلة علمك بالغيب! وكيف تستقضيه إن كنت كذلك؟ ما أنصفت من نفسك ولا أصبت باب الرضا!.

وهذا كلام حسن، ومعناه أن العبد إذا استخار الله ـ عزَّ وجلّ ـ فينبغي له أن يرضى لما اختاره له من موافق لهواه أو مخالف له، لأنه لا يدري في أيهما الخيرة له[1] والله سبحانه غير متهم في قضائه لمن استخاره، ومن هاهنا كان طائفة من السلف كابن مسعود وغيره يأمرون من يخاف أو لا يصبر على ما يخالف هواه مما يختار له أن يقول في استخارته: في عافية فإنه قد يختار له البلاء ولا يصبر عليه، وقد روي هذا مرفوعاً من وجه ضعيف[2].

---

(١) بعد هذه الكلمة زاد في (ش): «والله تعالى أعلم».

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠/٩٥) من حديث ابن مسعود في ضمن حديث الإستخارة، وإسناده ضعيف جداً فيه صالح بن موسى الطلحي وهو متروك، وله طريق أخرى أيضاً: أخرجها الطبراني في الكبير (١٠/١١١، ١١٢) وفي إسنادها عمران بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى مقبول كما في التقريب ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى سيء الحفظ جداً.

عن بكر المزني أن رجلاً كان يكثر الاستخارة فابتلي فجزع ولم يصبر فأوحى الله إلى نبي من أنبيائهم أن قل لعبدي فلان: إذا لم تكن من أهل العزائم فهلا استخرتني في عافية!.

وفي حديث سعد المرفوع: «إِنَّ مِنْ سَعَادَةِ المَرْءِ اسْتِخَارَتَهُ ربَّه عَزَّ وجَلَّ ورِضَاهُ بما قَضَى، وإِنَّ شقَاوتِهِ تَرْكَهُ الاستِخارَةَ وسُخطَه بِما قَضَى». خرَّجه الترمذي وغيره[1].

وللرضا بالقضاء أسباب:

منها: يقين العبد بالله وثقته به بأنه لا يقضي للمؤمن قضاء إلَّا وهو خير له، فيصير كالمريض المستسلم للطبيب الحاذق الناصح فإنه يرضى بما يفعله به من مؤلم وغيره لثقته به ويقينه أنه لا يريد له إلَّا الأصلح، وهذا هو الذي أشار إليه ابن عون في كلامه المتقدم ذكره.

ومنها: النظر إلى ما وعد الله من ثواب الرضا، وقد يستغرق العبد في ذلك حتى ينسى ألم المقضي به كما روي عن بعض

---

(١) أخرجه أحمد (١/١٦٨) والترمذي (٢١٥١) والبزار في مسنده (١/٣٥٩ ـ كشف) والحاكم (١/٥١٨) والبيهقي في شعب الإيمان (١/٥٢١) والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (٢/٢٣٦) وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٦/٢٣٢) وإسناده ضعيف؛ فيه محمد بن أبي حميد ضعيف، ضعفه غير واحد مثل أبي حاتم والنسائي وغيرهما.
وأخرجه أبو يعلى في مسنده (٧٠١) وفي إسناده عمر بن علي بن عطاء بن مُقدَّم ثقة لكنه يدلس تدليساً شديداً كما في التقريب، وكذلك فيه عبد الرحمن بن أبي بكر بن عبيد الله قال عنه البخاري وأحمد: منكر الحديث وقال النسائي: متروك. التهذيب (٦/١٤٦).

الصالحات من السلف أنها عثرت فانكسرت ظفرها، فضحكت وقالت: أنساني لذة ثوابه مرارة ألمه.

ومنها: وهو أعلى من ذلك كله الاستغراق في محبة المبتلي ودوام ملاحظة جلاله وجماله وعظمته وكماله الذي لا نهاية له، فإن قوة ملاحظة ذلك يوجب الاستغراق فيه، حتى لا يشعر بالألم كما غاب النسوة اللاتي شاهدن يوسف عن ألم تقطيع أيديهن بمشاهدته.

قال الجنيد سألت سرياً: هل يجد المحب ألم البلاء؟ فقال: لا. وهذا إشارة منه إلى هذا المقام، ومنه قول جماعة من أهل البلاء: يفعل بنا ما يشاء فلو قطعنا إرباً إرباً ما ازددنا له إلاَّ حباً.

وفي هذا المعنى يقول بعضهم:

لَوْ قَطَّعَني الغَرَامُ إِرْباً إِرْباً ... ما ازددْتُ على المَلَامِ إلاَّ حُبَّاً
لا زِلْت بكمُ أسِيرَ وجْدٍ صبا ... حتىً أقضِي على هَوَاكُم نُحْباً

كان إبراهيم بن أدهم [قد][1] خرج عن ملكه وماله وولده وحشمه، فرأى ولده في الطواف فلم يكلمه، وقال:

هَجرتُ الخَلْقَ طُراً في هواكا ... وأيتَمتُ العِيَال لكي أرَاكَا
فلو قَطَّعتَنِي في الحُبِّ إربْاً ... لما حَنَّ الفُؤاد إلى سِوَاكَا

كان جماعة من المحبين كالفضيل وفتح الموصلي إذا باتوا ليلة بغير عشاء ولا سراج اشتد فرحهم، وبكوا من الفرح، وقالوا:

---

(١) ما بين المعكوفين من (ش).

مثلنا يترك بغير عشاء ولا سراج بأي يد كانت منًا، وبأي وسيلة توسلنا بها، وكان فتح يجمع ولده في ليالي الشتاء، ويغطيهم بكسائه، ويقول: أجعتني وأجعت عيالي، وأغربتني وأغربت عيالي، وإنما تفعل ذلك بأوليائك وأحبابك فهل أنا منهم حتى أفرح؟[1].

ودخلوا على بعض السلف وهو مريض [فقالوا له: ما تحب؟][2] فقال: أحبُّه إليَّ أحبُّه إليه[3].

وفي هذا يقول بعضهم:

عَذَابُهُ فيكَ عَذْبُ ... وبعدُهُ فيكَ قُرْبُ
وأنت عندي كَرُوحِي ... بَلْ أنْتَ منها أحبُّ
حَسْبِي مِنَ الحُبِّ أنيِّ ... لِمَا تُحِبُّ أُحبُّ

وأنشد أبو تراب:

لا تَخْدَعنَّ فللمُحبِّ دَلائِلُ ... ولدَيْهِ مِنْ تُحَفِ الحبيبِ وسائِلُ
منها تنعُّمُهُ بِمُرِّ بلائِهِ ... وسُرُورُهُ في كُلِّ ما هو فاعلُ
فَالمنعُ منه عَطِيَّةٌ مقبُولَةٌ ... والفَقْرُ إكرامٌ وبِرٌّ عَاجِلُ

دخلوا على رجل قد قتل ابنه في الجهاد يعزونه فبكى وقال: ما أبكي على قتله، إنما أبكي كيف كان رضاه عن الله حين أخذته السيوف؟:

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/٢٩٢).
(٢) هو يحيى بن سعيد القَطَّان في سير أعلام النبلاء (٩/١٨٢).
(٣) أخرجه البخاري (٣/١٧١، ١٣/١٣٢) ومسلم (٢/٦٣٧، ٦٣٨) من حديث أنس بن مالك.

إن كَـــان سُـكَّـــانُ الـغَــضَــا رَضُــوا بــقَــتْــلي فَــرضــى
والــلَّـهِ لا كُــنْــتُ لِــمَــا يَـهْــوَى الحَـبيــبُ مُـبْـغِـضــا
صِــرْتُ لَــهــمْ عَــبْــداً ومــا لــلعَــبْــد أن يَــعْــتَــرِضـا
هــم قَــلَّــبُــوا قَــلْبي مــن الـشـ ـوق عـلى جَـمْــرِ الــغَـضَـا
يــا لــيــتَ أيــام الــحِــمــىَ يـعــودُ مـنــهــا مــا مَـضَــى
مــن لِــمَــريضٍ لا يَــرى إلَّا الــطبيــبَ الــمُــمــرِضــا

والمقصود أن النبي ﷺ أمر ابن عباس بالعمل بالرضا إن استطاعه، ثم قال له: «فإن لم تستطِع فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً».

وهذا يدل على أن الرضا بالأقدار المؤلمة ليس بحتم واجب وإنما هو فضل مندوب إليه، فمن لم يستطع الرضا فليلزم الصبر، فإن الصبر واجب لا بد منه، وفيه خير كثير، فإن الله تعالى أمر بالصبر ووعد عليه جزيل الأجر قال تعالى:

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وقال:

﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

وقال تعالى:

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ [الحج: ٣٤، ٣٥].

قال الحسن: الرضا عزيز ولكن الصبر مُعَوَّلُ المؤمن. قال سليمان الخواص: الصبر دون الرضا، والرضا: أن يكون الرجل قبل نزول المصيبة راض بأي ذلك كان، والصبر: أن يكون بعد نزول المصيبة يصبر.

وحقيقة الفرق بين الصبر والرضا: أن الصبر كف النفس وحبسها عن التسخط مع وجود الألم، والرضا يوجب انشراح الصدر وسعته، وإن وجد الإحساس بأصل الألم لكن الرضا يخفف الإحساس بالألم لما يباشر القلب من روح اليقين والمعرفة، وقد يزيل الإحساس به بالكلية على ما سبق تقريره.

ولهذا قال طائفة كثيرة من السلف منهم عمر بن عبد العزيز، والفضيل وأبو سليمان، وابن المبارك، وغيرهم: إن الراضي لا يتمنى غير حاله التي هو عليها بخلاف الصابر.

وقد روي عن طائفة من الصحابة هذا المعنى أيضاً وأنهم كانوا لا يتمنون غير ما هم عليه من الحال، منهم عمر وابن مسعود.

قال عبد العزيز بن أبي روَّاد: كان عابد يتعبد في بني إسرائيل، فرأى في منامه أن فلانة زوجتك في الجنة فاستضافها ثلاث ليال لينظر عملها، فكانت تنام وهو يقوم، وتفطر وهو يصوم، فلما فارقها سألها عن أوثق عملها عندها، قالت: هو ما رأيت، إلاَّ خصلة واحدة، إن كنت في شدة لم أتمنّ أني في رخاء، وإن كنت في مرض لم أتمنّ أني في صحة وإن كنت جائعة لم أتمنّ أني شبعانة، وإن كنت في شمس لم أتمنّ أني في فيء.

فقال العابد: هذه والله خصلة يعجز عنها العباد.

وكما أن الصبر إنما يكون عند الصدمة الأولى، كما صح ذلك عن النبي ﷺ[1]، فالرضا إنما يكون بعد نزول البلاء، كما كان النبي ﷺ يقول في دعائه: «وأَسْأَلُكَ الرِّضَا بعدَ القَضَاء»[2].

لأن العبد قد يعزم على الرضا بالقضاء قبل وقوعه، فإذا وقع انفسخت تلك العزيمة.

فمن رضي بعد وقوع القضاء، فهو الراضي حقيقة.

وفي الجملة: فالصبر واجب لا بد منه، وما بعده إلَّا السخط، ومن سخط أقدار الله فله السخط مع ما يتعجل له من الألم وشماتة الأعداء به أعظم من جزعه كما قال بعضهم:

لَا تَجْزَعنْ مِنْ كُلِّ خَطْبٍ عَرا ... ولا ترى الأَعْداء ما يشمتوا
يا قوم بالصَّبْرِ تنال المنى ... إذا لقيتم فِئَةً فاثْبُتُوا

وقال النبي ﷺ:

---

(١) قطعة من حديث عمار بن ياسر أخرجه أحمد (٤/٢٦٤) وابن أبي شبية في المصنف (١٠/٢٦٤، ٢٦٥) وعبد الله بن أحمد في السنة (٤٦٦) والنسائي (٣/٥٤، ٥٥) وابن خزيمة في التوحيد (ص ١٢) وابن نصر في قيام الليل (ص ٢٤٦) والدارمي في الرد على الجهمية (ص ٩٨) واللالكائي في أصول السنة (٣/٤٨٨، ٤٨٩) والطبراني في الدعاء (٦٢٤) وابن حبان (٥٠٩) وابن منده في الرد على الجهمية (ص ٩٦)، والحاكم (١/٥٢٤، ٥٢٥) وصححه ووافقه الذهبي والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ١٤٩) وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه البخاري (٣/٣٣٥) ومسلم (٢/٧٢٩) من حديث أبي سعيد الخدري.

«من يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ الله ، وما أُعطيَ أحدٌ عَطاءً خَيْراً ولا أوسَعَ من الصَّبْرِ»[1].

وقال عمر وجَدْنا خيرَ عَيشنا الصبر[2]. وقال علي: إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له.

وقال الحسن: الصبر كنز من كنوز الجنة، لا يعطيه الله إلاّ لمن كرم عليه.

وقال ميمون بن مهران: ما نال أحد شيئاً من جسيم الخير،

---

(١) أخرجه البخاري (١١/٣٠٣) تعليقاً مجزوماً به.
وقد وصله عبد الله بن المبارك في الزهد (٦٣٠) ووكيع بن الجراح في الزهد (١٩٨) وأحمد في الزهد (ص ١١٧) وأبو نعيم في الحلية (١/٥٠) عن مجاهد قال: قال عمر بن الخطاب فذكره.
ومجاهد لم يسمع من عمر بن الخطاب فقد ولد في خلافه عمر سنة إحدى وعشرين وعمر بن الخطاب استشهد ثلاث وعشرين من الهجرة وعليه فالإسناد منقطع وقد صحح إسناده الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/٣٠٣) ولعله يعني بذلك أنه صحيح إلى مجاهد.
وأخرجه الحاكم كما في الفتح (١١/٣٠٣) عن مجاهد عن سعيد بن المسيب عن عمر.
وأخرجه أبو نعيم في أخبار أصبهان (٢/١٩٥) عن عمرو بن الحارث قال: قال عمر فذكره.
وإسناده ضعيف؛ فيه محمد بن خشنام الأصبهاني ذكره الخطيب في تاريخه (٥/٢٥٢) ولم يحك فيه جرحاً ولا تعديلاً، وفيه عبد الله بن صالح كاتب الليث صدوق يغلط وعمرو بن الحارث لم يسمع من عمر فبينهما مفاوز تتقطع دونها أعناق الإبل فقد ولد عمرو بن الحارث سنة ٩٠ وقيل بعد ذلك.
(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/٧٥، ٧٦).

نبي فمن دونه إلاَّ بالصبر، وقال إبراهيم التيمي: ما من عبد وهب الله له صبراً على الأذى، وصبراً على البلاء وصبراً على المصائب، إلاَّ وقد أوتيَ أفضل ما أوتيه أحد بعد الإيمان بالله عزَّ وجلّ.

وهذا منتزع من قوله تعالى:

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ. . .﴾ إلى قوله:

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

والمراد بالبأساء الفقر ونحوه، وبالضراء المرض ونحوه، وحين البأس حال الجهاد.

وقال عمر بن عبد العزيز: ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه، فعاضه مكان ما انتزع منه الصبرَ إلاَّ كان ما عوضه خيراً مما انتزع منه، ثم تلا:

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وكان بعض الصالحين في جيبه ورقة يفتحها كل ساعة فينظر فيها، وفيها مكتوب:

﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ﴾ [الطور: ٤٨].

والصبر الجميل هو أن يكتم العبد المصيبة ولا يخبر بها. قال طائفة من السلف في قوله تعالى:

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ٨٣].

قالوا: لا شكوى معه.

كان الأحنف بن قيس قد ذهبت عينه من أربعين سنة ولم يذكرها لأحد.

وذهبت عين عبد العزيز بن أبي روّاد من عشرين سنة، فتأمله ابنه يوماً فقاله له: يا أبت، قد ذهبت عينك! فقال: نعم يا بني، الرضا عن الله أذهب عين أبيك من عشرين سنة.

وكان الإمام أحمد لا يشتكي ما به من المرض إلى أحد، وذُكِرَ له أن مجاهداً كان يكره الأنين في المرض، فتركه فلم يئن حتى مات، وكان يقول لنفسه: يا نفس اصبري وإلاَّ تندمي.

ودخل بعض العارفين على مريض يقول: آه، فقال له ذلك العارف: ممّن؟.

وفي هذا المعنى يقول بعضهم:

تَفيضُ النُّفُوسُ بأَوْصَابِها وتكْتُمُ عُوَّادَهَا ما بِهَا
وما أنصَفَت مُهْجَةٌ تَشْتَكي هَوَاهَا إلى غَيْرِ أحبَابِهَا

قال يحيى بن معاذ: لو أحببت ربك ثم جوّعك وأعراك، لكان يجب أن تحتمله وتكتمه عن الخلق، فقد يحتمل الحبيب لحبيبه الأذى فكيف وأنت تشكوه فيما لم يصنعه بك؟:

ويقبُحُ من سِوَاكَ الفِعْلُ عِنْدي وتَفْعَلُهُ فَيحْسُنُ مِنكَ ذاكَا

كان الرسول ﷺ وأصحابه يشدون على بطونهم الحجارة من الجوع[1].

كان أُوَيْس يلتقط الكسَر من المزابل، والكلابُ تزاحمه، فنبح عليه كلب يوماً فقال: يا كلب لا تؤذ من لا يؤذيك، كل مما

(١) البخاري (١١/٢٨١).

يليك وآكل مما يليني، فإن دخلت الجنة فأنا خير منك، وإن دخلت النار فأنت خير مني.

وكان إبراهيم بن أدهم يلتقط السنبل مع المساكين، فرأى منهم كراهة لمزاحمته، فقال: أنا تركت ملك بلخ أفأزاحم المساكين على لقاط السنبل؟ فكان بعد ذلك لا يلتقط إلا مع الدواب التى ترعى فيه.

وكان الإمام أحمد يلتقط السنبل مع المساكين.

وآجر سفيان الثوري نفسه من جمالين في طريق مكة، فطبخ لهم طعاماً فأفسده فضربوه.

وكان فتح الموصلي يوقد النار للناس بالأجرة:

مِن أجلِكَ قَدْ تَرَكْتُ خَدِّي أَرْضاً
لِلشَّامِتِ والحَسُودِ حَتَّى تَرْضَى
مَوْلَايَ إلى متى بِهذا أحظَى
عُمْري يَفْنَى وحاجَتِي ما تُقْضَى

[وقال غيره][1].

كَمْ أَحْمِلُ في هَواكَ ذُلًّا وعنَا ... كَمْ أصبرُ فيكَ تحْتَ سُقْم وضَنا
لا تطرُدُنّي فليسَ عَنْك غِنَى ... خُذْ رُوحِي إنْ أردتَ الثَّمَنَا
من أَجْلِ هَوَاكُمْ هَويتُ العشْقَا ... قَلبي كَلفٌ ودمعتِي ما تَرْقَا
في حُبِّكُم يهونُ مَا قَدْ أَلقَى ... ما يَسْعَدُ بالنَّعيم من لا يَشْقَى

(١) ما بين المعكوفين من (ل) و (ض).

كانت مصائب الدنيا عندهم نعماً، حتى قال بعضهم: ليس بفقيه من لم يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة.

ومن الإسرائيليات: إذا رأيت الغنى مقبلاً فقل: ذنب عجلت عقوبته، وإذا رأيت الفقر مقبلاً فقل: مرحباً بشعار الصالحين.

وقال بعض السلف[1]: إني لأصاب بالمصيبة فأحمد الله عليها أربع مرات: أحمد الله إذ لم تكن أعظم مما هي، وأحمد الله إذ رزقني الصبر عليها، وأحمده إذ وفقني للاسترجاع، وأحمده إذ لم يجعلها في ديني.

وانتظار الفرج بالصبر عبادة فإن البلاء لا يدوم:

اصْبِرْ لِكُلِّ مُصيبةٍ وتَجلَّد واعلَمْ بأنَّ الضُّرَّ غَيْرُ مُؤبّد
واصبِر كَمَا صَبَرَ الكِرَامُ فإنَّها نُوَبٌ تَنُوبُ اليوم تُكْشَفُ في غَدِ

إذا غمس أعظم الناس بلاء كان في الدنيا في نعيم الجنة غمسة، قيل له: هل رأيت بؤساً قط؟ هل مر بك بؤس قط؟ قال لا يا رب[2]:

(١) هو شريح القاضي كما في سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/١٠٥).
(٢) يشير المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ إلى الحديث الذي أخرجه مسلم (٤/٢١٦٢). عن أنس بنْ مالِك. قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُؤْتَى بِأَنْعم أهلِ الدنيا، مِنْ أَهْلِ النَّارِ، يَوْم القِيَامَةِ. فَيُصْبَغُ في النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَال: يَا ابْن آدم! هَلْ رَأَيْتَ خَيْراً قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فيقولُ: لاَ. وَاللَّهِ! يَا رَبِّ! وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاس بُؤْساً في الدُّنيا، مِنْ أَهْلِ الجَنةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَة في الجنة. فَيُقالُ لَهُ: يَا ابن آدَمَ! هَلْ رَأَيْتَ بُؤساً قَطُّ قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فيقول: لا. واللَّهِ! يَا رَبِّ ما مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ. ولا رَأَيْتَ شِدَّةً قَطُّ».

يـا نَفْسُ ما هيَ إلاَّ صَبْـرُ أيَّـام	كـأنَّ مُـدَّتَهـا أضغَـاثُ أحـلاَم
يا نَفْسُ جُوزِي عن الدنيا مُبَادِرةً	وخَـلِّ عنهـا فـإن العَيْشَ قُـدام

وقال [غيره][1] :

ومـا هيَ إلاَّ سَاعَـةٌ ثُمَّ تَنْقَضِي	ويـذهـبُ هَـذا كُلُّهُ ويـزُولُ

● ● ●

(١) مابين المعكوفين من (ل) و (ض).

وقوله ﷺ: «واعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ»

هذا موافق لقوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا. . . ﴾ الآية، [الأنفال: ٤٥].

وقوله تعالى: ﴿ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ. . ﴾ الآية، [الأنفال: ٦٦].

وقوله تعالى في قصة طالوت:

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ. . . ﴾ إلى قوله:

﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وقوله تعالى:

﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ. . . ﴾ الآيات، [آل عمران: ١٢٥].

إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث في الأمر بالصبر عند لقاء العدو كثيرة جداً.

وقال عمر لأشياخ من بني عبس: بم قاتلتم الناس؟ قالوا: بالصبر، لم نلق قوماً إلاَّ صبرنا لهم كما صبروا لنا.

قال بعض السلف: كلنا يكره الموت وألم الجراح، ولكن نتفاضل بالصبر.

وسئل البطال عن الشجاعة فقال: صبر ساعة.

وهذا كله في جهاد العدو الظاهر وهو جهاد الكفار، وكذلك في جهاد العدو الباطن وهو جهاد النفس والهوى، فإن جهادهما من أعظم الجهاد كما قال النبي ﷺ:

«المُجَاهِدُ من جَاهَدَ نفسَهُ في اللَّهِ»(١).

وقال عبد الله بن عمرو لرجل سأله عن الجهاد: ابدأ بنفسك فجاهدها، وابدأ بنفسك فاغزها.

ويروى بإسناد ضعيف من حديث جابر أن النبي ﷺ قال لقوم رجعوا من الغزو:

«قَدِمْتُمْ من الجِهَادِ الأصْغَرِ إلى الجِهَاد الأكْبَرِ، قيل: وما الجِهادُ الأكْبَرُ؟ قال: مُجَاهَدَةُ العَبْدِ لِهَوَاه»(٢).

وقال أبو بكر الصديق في وصيته لعمر رضي الله عنه حين استخلفه: إن أول ما أحذرك نفسك التي بين جنبيك.

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (٦/ ٢٠) والطبراني في الكبير (١٨/ ٣٠٧) وابن حبان (١٦٢٤) والقضاعي في مسند الشهاب (١٨٤) من حديث فضالة بن عبيد وإسناده حسن، وأخرجه من طريق أخرى البزار (٢/ ٣٥ ـ كشف الأستار) والطبراني في الكبير (١٨/ ٣٠٩) وابن منده في الإيمان (٣١٥) والقضاعي (١٣١، ١٨٣) وابن حبان (٢٥) والحاكم (١/ ١٠، ١١) بلفظ: «والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله». إسناده حسن.
وأخرجه الترمذي (١٦٢١) بلفظ: «والمجاهد من جاهد نفسه». وإسناده حسن أيضاً.

(٢) أخرجه البيهقي في كتاب الزهد الكبير (٣٧٤) والخطيب في التاريخ (١٣/ ٤٩٣). وقال البيهقي: «هذا إسناد ضعيف» قلت: وذلك لأجل الليث بن أبي سليم ضعيف لاختلاطه.

ويروى من حديث سعد بن سنان عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ، ومن حديث أبي مالك الأشجعي عن النبي ﷺ مرسلاً قال: «لَيْسَ عَدُوُّكَ الذِي إِذَا قتلَكَ أَدْخَلَكَ الجَنَّة، وإذا قَتَلْتَهُ كَانَ لكَ نُوراً، أَعْدَى عَدُوِّكَ نفسُكَ الَّتِي بين جَنْبَيْكَ»(١).

وأخذ هذا المعنى العباس بن الأحنف الشاعر فقال:

قَلْبي إلى ما ضَرني داعي … يكثر أحزاني وأوْجَاعي
لقل ما أبقى على ما أرى … يُوشِك أن ينعاني الناعي
كيفَ احْتراسي من عَدوي إذا … كان عدوي بين أضلَاعي

فهذا الجهاد أيضاً يحتاج إلى صبر، فمن صبر على مجاهدة نفسه وهواه وشيطانه غلب وحصل له النصر، ومن جزع ولم يصبر على مجاهدة ذلك غلب وقُهر وأسر، وصار ذليلاً أسيراً في يدي شيطانه وهواه، [كما قيل](٢):

إذا المرء لم يغلب هواه أقامه … بمنزلة فيها العزيز ذليل

وقال [غيره](٢):

رُبَّ مَسْتُورٍ سَبَتهُ صَبوَةٌ … فَتَعَرَّى صَبْرُهُ فانهَتَكَا
صَاحِبُ الشَّهْوَةِ عَبْدٌ فإذا … غَلَبَ الشَّهْوَةَ صَارَ المَلِكَا

---

(١) حديث أنس لم أقف عليه، وأما حديث أبي مالك الأشعري فأخرجه الطبراني في الكبير (٣/٣٣٣، ٣٣٤) وإسناده ضعيف؛ فيه محمد بن إسماعيل بن عياش لم يسمع من أبيه كما قال أبو حاتم الرازي وقال أبو داود: «لم يكن بذاك». التهذيب (٩/٦٠، ٦١).

(٢) من (ل) و(ض) و(ط).

قال ابن المبارك: من صبر فما أقل ما يصبر، ومن جزع فما أقل ما يتمتع.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ:

«لَيْسَ الشَّديدُ بالصُّرْعَةِ إِنَّمَا الشَّديدُ الذي يَمْلِكُ نفسَهُ عِنْدَ الغَضَب»[1].

ووصف بعضهم الأحنف بن قيس فقال: كان أشد سلطاناً على نفسه. [عند الغضب][2].

قيل لبعضهم: إن فلاناً يمشي على الماء، فقال: من مكّنه الله من مخالفة هواه فهو أقوى ممن يمشي على الماء[3].

واعلم أن نفسك بمنزلة دابتك، إن عرفت منك الجدّ جدَّتْ، وإن عرفت منك الكسل طمعت فيك، وطلبت منك حظوظها وشهواتها.

كان أبو سليمان الداراني يقول: كنت بالعراق، أمر على تلك القصور والمراكب والملابس والمطاعم التي للملوك فلا تلتفت نفسي إلى شيء من ذلك، وأمر على التمر، فتكاد نفسي

(١) أخرج البخاري (١٠/٥١٨) ومسلم (٤/٢٠١٤) من حديث أبي هريرة.

(٢) ما بين المعكوفين من (ش).

(٣) أخرج ابن أبي حاتم في مناقب الشافعي (ص ١٨٤) والبيهقي في المناقب (١/٤٥٣) عن يونس بن عبد الأعلى قال: قلت للشافعي: تَرْوي ــ يا أبا عبد الله ــ: ما كان يقول فيه صاحبنا؟ ــ أريد: الليث، أو غيره ــ كان يقول: «لو رأيته يمشي على الماء (يعني: صاحب الكلام): لا تثق به (أو لا تغتر به)، ولا تكلمه».
قال الشافعي: «فإنه ــ والله ــ قد قصَّر إن رأيته يمشي في الهواء: فلا تركن إليه...».

تقع عليه، فذكر ذلك لبعض العارفين فقال: تلك الشهوات آيس نفسه منها فأيست والتمرة أطمعها فيه فطمعت، كما قيل:

صَبَرتُ على اللذاتِ حتى تَوَلَّت
وألزمتُ نَفْسِي هَجْرَهَا فاستَمَرَّتِ
وما النَّفْسُ إلاَّ حيثُ يجعلُهَا الفتى
فإنْ طَمِعَت تاقتْ وإلاَّ تَسَلَّتِ
وكانتْ على الأيَّامِ نفسِي عَزِيزة
فَلَمَّا رأت عَزمي على الذُّلِّ ذلتِ

فقوله ﷺ: «أنَّ النَّصْر مع الصَّبْر».

يشمل الصبر على جهاد العبد لعدوه الظاهر، وجهاده لعدوه الباطن وهو نفسه وهواه، وكان السلف يفضلون هذا الصبر على الصبر على البلاء.

وقال ميمون بن مهران: الصبر صبران: الصبر على المصيبة حسن، وأفضل من ذلك الصبر عن المعاصي.

وقال سعيد بن جبير: الصبر على نحوين: أحدهما الصبر عما حرم الله، والصبر لما افترض الله من عبادته، فذلك أفضل الصبر، والصبر الآخر في المصائب.

وقد ورد في هذا حديث مرفوع من حديث علي لكنه لا يثبت[1].

• • •

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الصبر وأبو الشيخ في كتاب الثواب والديلمي في مسند الفردوس كما في إتحاف السادة المتقين (٢٥/٩) وفي إسناده من يجهل.

قوله ﷺ: «أَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ»

هذا يشهد له قوله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ . . .﴾ الآية، [الشورى: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾.

إلى قوله: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ . . .﴾ الآية، [الروم: ٤٨].

وقول النبي ﷺ في حديث أبي رزين العقيلي:

«ضَحِكَ رَبُّنَا من قُنُوط عِبادِهِ وقُرْبِ غِيَرِه» خرَّجه الإمام أحمد، وخرَّج ابنه عبد الله من حديث أبي رزين أيضاً في حديث طويل عن النبي ﷺ قال: «عَلِمَ اللَّهُ يَوْمَ الغَيْثِ إنه ليشرفُ عليكم أَزَلِّيْنِ قنطين، فيظلُّ يضحَكُ، قد عَلِمَ أن غَيْرَكُم إلى قُرْبٍ»[1].

والمعنى أنه سبحانه يعجب من قنوط عباده عند احتباس المطر عنهم وخوفهم وإشفاقهم ويأسهم من الرحمة، وقد قدر الله تغيير هذه الحال عن قرب بإنزال المطر ولكنهم لا يشعرون.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/١١، ١٢) وابنه عبد الله في السنة (٤٥٢، ٤٥٣) وابن ماجه (١٨١) وابن أبي عاصم في السنة (٥٥٤) والآجري في الشريعة (ص ٢٧٩، ٢٨٠) والدارقطني في الصفات (٣٠) والذهبي في المعجم الكبير (١/٢٣٧) وإسناده ضعيف؛ فيه وكيع بن حُدس فيه جهالة، قال الذهبي: «لا يعرف».

وهـذا كمـا اشتكى ذلـك الـرجـل إلى النبـي ﷺ وهـو قـائم يخطب يوم الجمعة احتباس المـطر وجهد النـاس فرفـع النبـي ﷺ يديه فاستسقى لهم حتى نشأ السحاب ومطروا إلى الجمعة الأخرى حتى قـاموا إليـه ﷺ فطلبـوا منـه أن يستصحي لهم ففعـل فـأقلعت السماء[1].

وقد قصَّ الله في كتابه قصصاً كثيرة تتضمن وقوع الفـرج بعد الكرب والشدة، كما قص نجاة نوح ومن معه في الفلك من الكرب العظيم، مع إغراق سائر أهل الأرض.

وكما قص نجاة إبراهيم ــ عليه السلام ــ من النار التي ألقـاه المشركون فيها وأنه جعلها برداً وسـلاماً، وكمـا قص قصة إبـراهيم مع ولده الذي أمر بذبحه ثم فداه الله بذبح عظيم.

وكما قص قصة موسى ــ عليه السلام ــ مع أمه لما ألقته في اليم حتى التقطه آل فرعون، وقصته مع فرعون لما نجّى الله موسى في البحر وأغرق عدوه.

وقصة أيوب ويونس ويعقوب ويوسف ــ عليه السلام ــ وقصة قوم يونس لما آمنوا.

وكما قصَّ الله قصص محمد ﷺ ونصره على أعدائه ونجاتـه منهم في عدة مواطن مثل قصته في الغار وقصته يوم بدر ويـوم أُحد ويوم حنين.

---

(١) ورد هـذا ضمن حـديث طـويـل أخـرجـه البخـاري (٢/ ٥٠١، ٥٠٧) ومسلم (١/ ٦١٢) من حديث أنس.

وكما قص سبحانه قصة عائشة في حديث الإفك وبرأها مما رميت به(1). وقصة الثلاثة:

﴿ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾(2) [التوبة: ١١٨](3).

وفي السنة من هذا المعنى شيء كثير أيضاً مثل قصة الثلاثة الذين دخلوا الغار فانطبقت عليهم الصخرة فدعوا الله بأعمالهم الصالحة ففرج عنهم.

ومثل قصة إبراهيم وسارة مع الجبار الذي طلبها من إبراهيم ورد الله كيد الفاجر(4).

والحكايات الواقعة في هذا المعنى في الإسلام وقبله كثيرة جداً لا يمكن استقصاؤها وكثير منها مذكور في الكتب المصنفة: «في الفرج بعد الشدة» لابن أبي الدنيا وغيره، وكتاب «مجابي

---

(1) حديث الإفك: أخرجه البخاري (٨/٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٥) ومسلم (٤/٢١٢٩، ٢١٣٠، ٢١٣١، ٢١٣٢، ٢١٣٣، ٢١٣٤، ٢١٣٥، ٢١٣٦) من حديث عائشة.

(2) حديث توبة الثلاثة: أخرجه البخاري (٨/١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦) ومسلم (٤/٢١٢١، ٢١٢٢، ٢١٢٣، ٢١٢٤، ٢١٢٥، ٢١٢٦، ٢١٢٧، ٢١٢٨) من حديث كعب بن مالك.

(3) لم تذكر الآية القرآنية في (ب) و(ش) والمثبت من (ل) و(ض) و(ط).

(4) قصة إبراهيم وسارة مع الجبار: أخرجها البخاري (٦/٣٨٨) ومسلم (٤/١٨٤٠، ١٨٤١) من حيث أبي هريرة.

الدعوة» لابن أبي الدنيا، وكتاب «المستغيثين بالله والمستصرخين به»، وكتب كرامات الأولياء، وأخبار الصالحين، وفي كتب التواريخ وغيرها.

ونحن نذكر ههنا طرفاً يسيراً من أظرف ما حكي في هذا الباب ليعتبر به.

ذكر بعض العلماء في مصنّف له ــ وأظنه من المغاربة ــ أنه سمع من أبي ذر الهروي الحافظ يحكي أنه كان ببغداد يقرأ على أبي حفص ابن شاهين في دكان عطار، وأنه شاهد رجلاً جاء إلى العطار فدفع إليه عشرة دراهم وأخذ منه حوائج، وجعلها في طبق ووضعه على رأسه، فزلق ووقع طبقه وتفرقت حوائجه، فبكى واشتد بكاؤه وقال: لقد ضاع مني في قافلة كذا وكذا هميان فيه أربعمائة دينار، أو قال: أربعة آلاف دينار، ومعها فصوص قيمتها مثل ذلك فما جزعت لضياعها، ولكن ولد لي الليلة ولد فاحتجنا في البيت إلى ما تحتاج إليه النفساء، ولم يكن عندي غير هذه العشرة دراهم فلما قدر الله ما قدر جزعت، وقلت: لا أنا عندي ما أرجع به اليوم إلى أهلي ولا ما أكتسب لهم غداً، ولم يبق لي حيلة إلاّ الفرار عنهم وتركهم على هذه الحال فيهلكون بعدي، فلم أملك نفسي أن جزعت هذا الجزع.

قال أبو ذر: ورجل من شيوخ الجند جالس على باب داره فسمع هذا كله، فسأل الجندي أبا حفص أن يدخل هو وأصحابه والرجل المصاب معه إلى بيته ففعل، وطلب من الرجل المصاب إعادة الحكاية في الهميان فأعاد ذلك عليه، وسأله عن من كان في

تلك القافلة وعن المكان الذي ضاع منه الهميان، فأخبره، ثم سأله عن صفة الهميان وعلامته، فأخبره بذلك، فقال: لو رأيته كنت تعرفه؟ قال: نعم، قال: فأخرجه إليه فلما رآه، قال: هذا الهميان الذي سقط مني وفيه من الأحجار ما صفته كذا وكذا، ففتح الهميان فوجد الأحجار على ما وصف فدفعه إليه وخرج من عنده وقد صار من الأغنياء.

فلما خرج بكى الشيخ الجندي بكاءً شديداً فسئل عن سبب بكائه فقال: إنه لم يكن بقي لي في الدنيا أمل ولا أمنية أتمناها إلاَّ أن يأتي الله بصاحب هذا المال فيأخذه، فلما قضى الله بذلك بفضله ولم يبق لي أمل علمت أنه قد حان أجلي.

قال أبو ذر: فما انقضى شهر حتى توفي وصلينا عليه.

وحكى هذا المصنف أيضاً في كتابه عن رجل حكى له بالموصل أن رجلاً كان عندهم تاجراً يسافر بتجارته إلى البلدان، فسافر مرة بجميع ماله وما يملكه إلى الكوفة، فوافقه في تلك السفرة رجل فخدمه فأحسن خدمته، وأنس به حتى وثق به، ثم استغفله في بعض المنازل وأخذ دابته وما عليها من المال والمتاع، ولم يبق له شيئاً البتة، واجتهد في طلبه فلم يقع له على خبر، فرجع إلى بلده راجلاً جائعاً، فدخل المدينة ليلاً وهو على تلك الحال فطرق بابه، فلما علم أهله سروا وقالوا: الحمد لله الذي جاء بك في هذا الوقت، فإن أهلك قد ولدت اليوم ولداً وما وجدنا ما نشتري به ما تحتاج إليه النفساء، ولقد كانت هذه الليلة طاوية

فاشتر لنا دقيقاً ودهناً نسرج[1] به، فلما سمع ذلك زاد في غمه وكربه، وكره أن يخبرهم بما جرى له فيحزنهم، فخرج إلى حانوت رجل كان بالقرب من داره فسلم عليه، وأخذ منه دهناً وغيره مما يحتاج إليه، فبينما هو يخاطبه إذ التفت فرأى خرجه الذي هرب به خادمه مطروحاً في داخل الحانوت، فسأله عنه فقال: إن رجلاً ورد عليَّ بعد العشاء واشترى مني عشاء واستضافني فأضفته، فجعلت خرجه في حانوتي ودابته في دار جارنا، والرجل بائت في المسجد، فنهض إلى المسجد ومعه الخرج فوجد الرجل نائماً، فرفسه فاستيقظ مذعوراً، فقال له: أين مالي يا خائن؟ قال: هو ذا على عنقك والله ما تفقد منه ذرة. واستخرج الدابة على موضعها، ووسع على أهله وأخبرهم حينئذ بخبره.

ويشبه هاتين الحكايتين ما حكاه التنوخي في كتابه، والحكاية طويلة، وملخصها: أن رجلاً كان ببغداد في زمن الرشيد، وكان صيرفياً، فابتاع جارية بخمسمائة دينار، وشغف بها حتى تعطل عن معاشه بسبب ملازمتها، وأنفق رأس ماله حتى لم يبق معه منه شيء، وحملت جاريته فصار ينقض داره ويبيع أنقاضها حتى فرغت ولم يبق له حيلة فضربها الطَّلْقُ وهو على تلك الحال، وطلبت منه ما يصلح للنفساء، وشكت إليه أنها تموت إن لم يعجل عليها بذلك، فبكى، وخرج على وجهه، وهم أن يغرق نفسه في دجلة، ثم خاف عقاب الله فامتنع، وخرج ماشياً على قدميه من قرية إلى

(١) في (ب): «يسرج».

قرية حتى بلغ خراسان، فأقام بها واكتسب مالاً، وكتب إلى بلده ستة وستين كتاباً ليتعرف خبر الجارية فلم يعد إليه الجواب، فلم يشك أنها ماتت.

ثم رجع إلى بغداد بعد مدة طويلة، ومعه مال قيمته عشرون ألف دينار، فخرج على قافلته اللصوص فأخذوا ما معه كله، وعاد بثيابه فقيراً، ولم يزل يتوصل حتى دخل بغداد فقيراً كما خرج منها بعد أن غاب عنها قريباً من ثلاثين سنة، فقصد داره فوجدها عامرة، وبابها حسن، وعليه بواب وغلمان وبغال، فسأل عن الدار: لمن هي؟ فقيل: هي لابن فلان الصيرفي وسمّوا الرجل باسمه، قالوا: وهو ابن داية أمير المؤمنين، وهو جهبذه وصاحب بيت ماله، وأخبره الذي سأله أن أباه أخبره أن أبا هذا الرجل صاحب الدار كان صيرفياً جليلاً فافتقر، وإن أم هذا الصبي ضربها الطلق، فخرج أبوه يطلب لها شيئاً، ففقد وهلك، وأن أمه أرسلت إلى بعض الجيران تستغيث بهم فقاموا لها بحوائج الولادة، ثم أنه ولد لأمير المؤمنين ولد ذكر وذلك الولد هو المأمون، وأنه عرض عليه جميع الدايات فلم يقبل أثداهن، فأرشدوا إلى أم هذا الصبي فحُمِلَت إلى دار الرشيد، فحين وضع فم المولود على ثديها قَبلَه وأرضعته، وصارت عندهم في حال جليلة. ثم لما ولي المأمون الخلافة كانت المرأة وابنها معه، وبنى ابنها هذه الدار. وسأله عن أمه: أحية هي؟ قالوا: نعم، وهي تمضي إلى دار الخليفة أياماً وتكون عند ابنها أياماً، فجاء الرجل الصيرفي حتى دخل الدار مع الناس فرآها في غاية الحسن ورأى في صدرها شاباً يشبهه، وبين

يديه الكتاب والأموال والموازين يَقبضون ويُقبضون، فجلس الرجل في غمار الناس حتى تفرقوا ولم يبق غيره فقال له الشاب: يا شيخ هل من حاجة؟ قال: نعم أنا أبوك. قال: فتغير وجهه ووثب مسرعاً، ثم استدعاه إلى داره وأجلسه على كرسي وهناك ستار فقال له الشيخ: لعلك تريد أن تختبر صدق قولي من جهة فلانة وذكر اسم جاريته أم الصبي، فسمعت الجارية صوته فرفعت الستارة وخرجت إلى مولاها وجعلت تقبله وتبكي، وأخبرها خبره من حين خروجه من عندها إلى أن رجع فقام ولده حينئذٍ واعتذر إليه من تقصيره وأصلح حاله، ثم أدخله على المأمون فحدثه بحديثه، فخلع عليه وصيره جهبذاً له على ما كان عليه ابنه، وأجرى له الرزق وقلد ابنه عملاً أجل من عمله[1].

وروى المعافى بن زكريا النهرواني بإسناده عن سوَّار القاضي أنه خرج يوماً من دار المهدي، فدخل داره فدعا بغدائه فجاشت نفسه، فرده ثم دعا بجارية له فلم تطب نفسه، فدخل للقائلة فلم يأخذه النوم، فنهض وركب بغلته فلقيه وكيل له معه ألفا درهم فقال له: أمسكها معك واتبعني. وخلى بغلته فذهبت به، فحضرت الصلاة وهو في بعض الشوارع فدخل فصلى في مسجد هناك، فلما قضى صلاته، إذا هو بأعمى يتلمس، فقال له: ما تريد؟ قال له: أريدك. قال: وحاجتك؟ قال: شممت منك ريح الطيب فظننت أنك من أهل النعيم فأردت أن ألقي إليك شيئاً. قال: قل

(١) ذكر هذه القصة مطولة التنوخي في كتابه الفرج بعد الشدة (٣/٣١٤ - ٣٢٠).

قال: أترى هذا القصر؟ لقصرٍ هناك. قال: نعم، قال: فإنه كان لأبي فباعه، ثم خرج إلى خراسان فخرجت معه فزالت عنا النعم التي كنا فيها، فقدمت فأتيت صاحب الدار لأسأله شيئاً يصلني به وأصير إلى سوّار فإنه كان صديقاً لأبي، قال سوّار: قلت: فمن أبوك؟ قال: فلان بن فلان فإذا هو أصدق الناس لي، فقلت له: فإن الله قد أتاك بسوّار منعه الطعام والشراب والنوم وجاء به بين يديك. ثم دعا سوار وكيله فأخذ منه الدراهم فدفعها إليه. وقال له: إذا كان غد فصر إليَّ. قال سوَّار: ثم دخلت على المهدي فحدثته بهذا الحديث فأعجبه وأمر للأعمى بألفي دينار وأمر لسوّار بمائة ألف دينار، قال سوّار: فجاءني الأعمى، فدفعت إليه الألفي دينار، وقلت له: قد رزق الله بكرمه بك خيراً كثيراً وأعطيته من مالي ألفي دينار أيضاً.

وخرَّج ابن أبي الدنيا في كتابه «الفرج بعد الشدة» بإسناده عن وَضَّاح بن خيثمة قال: أمرني عمر بن عبد العزيز بإخراج من في السِّجْن فأخرجتهم إلاَّ يزيد بن أبي مسلم فنذر هدر دمي، فإني لبإفريقية إذ قيل لي: قَدِمَ يزيد بن أبي مسلم يعني أميراً على إفريقية فهربتُ منه، وأرسل في طلبي فأُخِذْت، فأُتي بي إليه، فقال لي: والله لطالما سألت الله أن يمكنني منك. فقلت: وأنا والله طالما استعذت بالله من شَرِّك، فقال: والله ما أعَاذَكَ. والله لأقتلنك ثم والله لأقتلنَّكَ، ثم واللّهِ لأقتلنك، لو سابقني ملك الموت إلى قبض روحك لسبقته، عليَّ بالسيف والنِّطع. قال: فجيء بالنِّطع فأقعدت فيه، وكُتِّفت. وقام قائم على رأسي بسيفٍ

مَشهـورٍ. وأقيمت الصلاة، فخـرج إلى الصَّلاة فلمـا سجد أخـذتـه سيوف الجند فقتـل. فجاءني رجـل فقطع كتـافي بسيفه وقـال لي: انطلق(١).

وبإسناده عن عمـر السَّرايـا وكان يغـزو في بلاد الـروم وحده فبينما هو نائم ذات يوم إذ ورد عليه عِلجٌ منهم فحرّكـه برجله فـانتبه فقـال: يا عـربـي اختر إن شئت مـطاعنةً، وإن شئت مسـايفةً، وإن شئت مصارعةً، فقلت: أما المطاعنة والمسايفة فلا بُقيـا لهما ولكن المصـارعة، فنـزل فصـرعني وجلس على صـدري وقـال: أيَّ قتلةٍ أقتلك؟ فرفعت رأسي وقلت: أشهد أن كـل معبود مـا دون عرشـك إلى قرار الأرضين باطـل غير وجهـك الكريم، قـد ترى مـا أنا فيـه ففـرج عني قـال: فـأغمي عليـه فـأفقت فـإذا الـرومي قتيـل إلى جنبـي(٢).

وروى أبـو الحسن ابن الجهضم بـإسنـاده عن حـاتم الأصم قال: لقينا الترك فكان بيننـا جولـة فرمـاني تركي فقلبني عن فـرسي ونـزل فقعـد على صـدري وأخـذ بلحيتي وأخـرج من خفـه سكينـاً ليـذبحني فما كـان قلبـي عنده ولا عنـد سكينـه، وإنمـا كـان عنـد سيدي فقلت: سيدي إن قضيت علي أن يذبحني هذا فعلى الرأس

---

(١) أخـرجه ابن أبـي الـدنيا في الفـرج بعـد الشـدة (٢/١٥٥/ب) وفي ذم البغي (٢٩).

(٢) أخرجه ابن أبـي الدنيا في مجـابـي الدعـوة رقم (٦٠) وفي الفرج بعـد الشدة (ص ٣٤ ــ ط).

والعين إنما لك وملكك، فبينما أنا على هذه الحال إذ رماه بعض المسلمين بسهم فما أخطأ حلقه فسقط عني فقمت أنا إليه وأخذت السكين من يده فذبحته بها، فما هو إلا أن تكون قلوبكم عند السيد حتى تروا من عجائب لطفه ما لم تروا من الآباء والأمهات.

وهذا باب يطول ذكره جداً فليقتصر على ما ذكرناه ففيه كفاية.

● ● ●

قوله ﷺ: «أَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً»

هذا منتزع من قوله سبحانه وتعالى:

﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

وقوله تعالى:

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الانشراح: ٥، ٦].

وروى حُميد بن حماد بن أبي الخوار، ثنا عائذ بن شريح: سمعت أنس بن مالك يقول:

كان النبي ﷺ جالساً وحياله جحر، فقال: «لَوْ جَاء العُسْرُ فَدَخَلَ هذا الجُحْرَ لجاءَ اليُسْرُ حَتَّى يَدخلَ عليه فيخرجه». فأنزل الله عز وجل:

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

خَرَّجَهُ ابن أبي حاتم في «تفسيره» وخرَّجه البزار في «مسنده» ولفظه:

«لَوْ جَاءَ العُسر حَتَّى يَدخل هذا الجُحر لجاءَ اليسر حَتَّى يخرجه. ثُمَّ قال:

﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

حُميد بن حماد هذا ضعفوه[1].

وخَرَّج ابن أبي حاتم من رواية مبارك بن فضالة عن الحسن قال: كانوا يقولون: لا يغلبُ عسر واحد يسرين اثنين[2].

وخَرَّج ابن جرير من رواية معمر عن الحسن قال:

خرج النبي ﷺ يوماً مسروراً فرحاً وهو يقول: «لن يغلب عسر يسرين، لن يغلب عسر يسرين..

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ »[3].

وخرَّجه أيضاً من رواية عوف ويونس عن الحسن مرسلاً أيضاً.

ومن حديث قتادة قال:

ذكر لنا رسول الله ﷺ بشر أصحابه بهذه الآية فقال: «لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ»[4].

---

(١) إسناده ضعيف. أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره كما في تفسير ابن كثير (٤/٥٢٥) والبزار (٣/٨١) وابن عدي في الكامل (٢/٦٩٤) والطبراني في الأوسط كما في المجمع (٧/١٣٩) وأبو نعيم في أخبار أصبهان (١/١٠٧) والحاكم (٢/٢٥٥) وقال: «هذا حديث عجيب غير أن الشيخين لم يحتجا بعائذ بن شريح».
وتعقبه الذهبي فقال: «تفرد به حميد بن حماد عن عائذ وحميد منكر الحديث كعائذ».

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما في ابن كثير (٤/٥٢٥) وفي إسناده المبارك بن فضالة لم يصرح بالتحديث.

(٣) أخرجه ابن جرير (٣٠/١٥١) والحاكم (٢/٥٢٨) وهو مرسل.

(٤) أخرجه ابن جرير (٣٠/١٥١) وهو مرسل أيضاً.

وروى ابن أبـي الدنيا من حديث معاوية بن قرة عن من حدثه عن ابن مسعود قال: لو أن العسر دخـل في جحر لجـاء اليسر حتى يدخل معه ثم قال: قال الله تعالى:

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

ومن حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيـه عن جده أن أبا عبيدة حُصـر فكتب إليه عمـر يقول: مهمـا ينزل بـامرىء من شدة إلا يجعل الله له بعدها فرجاً، إنه لن يغلب عسر يسرين، وإنه يقول:

﴿ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠][1].

وكذا قال ابن عباس وغيره من المفسرين في هذه الآيـة: لن يغلب عسر يسرين.

كان بعض المتقدمين ليلة في البادية في غم شديد فألقي في روعه بيت من الشعر، فقال:

أَرَى الـمَــوْتَ لِمَـنْ أصـبَـحَ   مَــغْــمُــومــاً لَــهُ أصْــلَحُ

فلمَّا جنَّ عليه الليل سَمِع هاتفاً يهتف:

ألا يــا أَيُّــهَــا الــمَــرْءُ   الــذي الــهــمُّ بـهِ بَــرَّحْ
وقَــدْ أنــشَــدَ بَــيْــتــاً لَــمْ   يَــزَلْ فــي ذِكْــرِه يَــسْــنــح
إذا اشــتَــدَّ بِــكَ الــعُــسْــرُ   فَــفَــكِّــر فــي أَلَــمْ نَــشْــرَحْ
فَــعُــسْــرٌ بــيْــنَ يُــسْــرَيــن   إذا أبْــصَــرْتَــه فــافْــرَحْ

---

(١) أخرجه ابن أبـي الدنيا في الفرج بعد الشدة (ص ٢٤) وفي إسناده جهالة.

قال: فحفظت الأبيات ففرج الله غمي.

وقد أكثر الشعراء في القول في هذا المعنى، ونحن نذكر قطعة منتخبة من محاسن ما قيل في ذلك، فمما قيل في هذا المعنى:

تَصَبَّرْ إِنَّ عُقْبَى الصَّبْرِ خَيْرٌ ... ولا تَجْزَعْ لِنَائِبَةٍ تَنُوبُ
فَإِنَّ اليُسْرَ بَعْدَ العُسْرِ يأتِي ... وعِنْدَ الضِّيق تنكشفُ الكُرُوبُ

ولبعضهم:

وكَمْ جَزِعَت نُفُوسٌ عَنْ أمُورٍ ... أَتَى من دُونِهَا فَرَجٌ قريبُ

ولبعضهم:

عَسَى فَرَجٌ يكونُ عَسَا ... نُعَلِّلُ أنفُسَنَا بعَسَى
وأقرَبُ ما يكونُ المَرْءُ ... مِنْ فَرَجٍ إذا يَئِسَا

ولغيره:

إذا تضايَقَ أمرٌ فانتظِرْ فَرَجا ... فأضيَقُ الأمرِ أَدْنَاهُ من الفَرَجِ

ولبعضهم:

فَلَا تَجْزَعْ وإن أعسرْتَ يَوْماً ... فَقَد أيسرتَ في الزَّمنِ الطَّويلِ
ولا تظْنُنْ بِرَبِّكَ ظنَّ سُوءٍ ... فإنَّ اللَّهَ أَولى بالجَميلِ
ولا تَيْأَس فإنَّ اليأْسَ كُفْرٌ ... لَعَلَّ الله يُغْنِيني عن قَلِيلِ
فإنَّ العُسْرَ يتبَعُهُ يَسَارٌ ... وقَيلَ: الله أصدَقُ كُلِّ قيلِ

ولبعضهم:

مِفتـاحُ بَـابِ الفَـرَجِ الصَّبْرُ   وكُـلُّ عُـسْـرٍ بعـدَهُ يُـسْـرُ
والـدَّهْـرُ لا يَبْقَى على حـالـةٍ   والأمْـرُ يـأتـي بعـدَهُ الأمْـرُ

ولغيره:

إذا اشتَمَلتْ على اليَأس القُلُوبُ   وضاقَ لِمَا بـه الصَّدْرُ الـرَّحيبُ
وأوطـأتِ المكـارِهُ واطمـأنَّتْ   وأرستْ في أمـاكِنِها الخُطُوبُ
ولم ترى لانكِشَافِ الضُّرِّ وجْهاً   ولا أَغْنى بـحيـاتِـهِ الأريـبُ
أتـاكَ على قُنُـوطٍ مِنْـكَ غَـوْثٌ   يَمُنُّ بِـهِ اللطيف المُستَجِيبُ
وكُـلُّ الحَـادِثَـات وإن تنـاهَتْ   فمـوصولٌ بِهَـا الفَرَجُ القَـرِيبُ

ولبعضهم:

عَسَى ما تَرَى أن لا يدُومَ وأَنْ تَرَى   لـه فَرَجـاً مِمّا ألـحَّ بِـهِ الـدَّهْـرُ
عَسَى فَـرَجٌ يـأتِي بـه الله إنَّـه   لـه كُـلُّ يـومٍ في خَلِيقَتِـهِ أمْـرُ
إذا لَاحَ عُسْـرٌ فارْجُ يُسْـراً فإنَّـه   قَضَى الله أَنَّ العُسْرَ يَتْبَعُهُ اليُسْرُ

ولنختم الكتاب بذكر نبذة يسيرة من لطائف البلايا وفوائدها وحكمها.

فمنها: تكفير الخطايا بها، والثواب على الصبر عليها، وهل يثاب على البلايا بنفسه؟ فيه اختلاف بين العلماء.

ومنها: تذكر العبد بذنوبه فربما تاب ورجع منها إلى الله عز وجل.

ومنها: زوال قسوة القلوب وحدوث رقتها.

قال بعض السلف: إن العبد ليمرض فيذكر ذنوبه فيخرج منه مثل رأس الذباب من خشية الله فيغفر له.

ومنها: انكسار العبد لله عز وجل وذله له، وذلك أحب إلى الله من كثير من طاعات الطائعين.

ومنها: أنها توجب للعبد الرجوع بقلبه إلى الله، والوقوف ببابه والتضرع له والاستكانة، وذلك من أعظم فوائد البلاء، وقد ذم الله من لا يستكين له عند الشدائد، قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦].

وقال:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

وفي بعض الكتب السابقة: إن الله ليبتلي العبد وهو يحبه ليسمع تضرعه.

وقال سعيد بن عبد العزيز: قال داود ـ عليه السلام ـ[(١)]: سبحان مستخرج الدعاء بالبلاء، وسبحان مستخرج الشكر بالرخاء.

ومرَّ أبو جعفر محمد بن علي بمحمد بن المنكدر وهو مغموم فسأل عن سبب غمه، فقيل له: الدَّين قد فدحه فقال أبو جعفر: أفتح له في الدعاء؟ قيل: نعم. قال: لقد بورك لعبد في حاجة أكثر فيها من دعاء ربه كائنة ما كانت.

وكان بعضهم إذا فتح له في الدعاء عند الشدائد لم يحب تعجيل إجابته خشية أن ينقطع عما فتح له.

وقال ثابت: إذا دعا الله المؤمن بدعوة وكَّل جبريل بحاجته

---

(١) إلى هنا انتهى ما في نسخة (ش).

يقول: لا تعجل بإجابته فإني أحب أن أسمع صوت عبدي المؤمن.

وروي مرفوعاً من وجوه ضعيفة(١).

رأى بعض السلف رب العزة في نومه فقال: يا رب، كم أدعوك ولا تجيبني؟

قال: إني أحب أن أسمع صوتك(٢).

ومنها: أن البلاء يوصل إلى قلبه لذة الصبر عليه والرضا به، وذلك مقام عظيم جداً، وقد تقدمت الإشارة إلى فضل ذلك وشرفه.

ومنها: أن البلاء يقطع قلب المؤمن عن الالتفات إلى مخلوق ويوجب له الإقبال على الخالق وحده.

وقد حكى الله عن المشركين إخلاص الدعاء له عند الشدائد فكيف بالمؤمن؟!.

فالبلاء يوجب للعبد تحقيق التوحيد بقلبه وذلك أعلى المقامات وأشرف الدرجات.

وفي الإسرائيليات يقول الله عز وجل: البلاء يجمع بيني وبينك، والعافية تجمع بينك وبين نفسك.

● ● ●

(١) ورد مرفوعاً من حديث جابر بلفظ: «إن العبد المؤمن يدعو الله...» إلخ الحديث.
أخرجه الطبراني في الأوسط كما في المجمع (١٠/١٥١) وفيه إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة متروك كما قال الهيثمي في المجمع.

(٢) كان الأولى بالمصنف ـ رحمه الله ـ الإعراض عن ذكر مثل هذه الحكاية، وقد شحن كتابه هذا من الحكايات التي جلها لا أصلٍ له في الكتاب والسنة الصحيحة بل مبنية على الخيال وكفى بما صح من السنّة وأقوال السلف واعظاً فنسأل الله أن يتجاوز عنا وعنه.

فصل

وإذا اشتدَّ الكرب وعظم الخطب كان الفرج حينئذٍ قريباً في الغالب. قال تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠].

وقال: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ . . .﴾ الآية، [البقرة: ٢١٤].

وأخبر عن يعقوب ـ عليه السلام ـ أنه لم ييأس من لقاء يوسف، وقال لإخوته:

﴿ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ . . .﴾ الآية، [يوسف: ٨٧].

وقال:

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣].

ومن لطائف أسرار اقتران الفرج باشتداد الكرب أن الكرب إذا اشتد وعظم وتناهى وجد الأياس من كشفه من جهة المخلوق ووقع التعلق بالخالق وحده، ومن انقطع عن التعلق بالخلائق وتعلق بالخالق، استجاب الله له وكشف عنه. فإن التوكل هو قطع

الاستشراف باليأس من المخلوقين، كما قال الإمام أحمد، واستدل عليه بقول إبراهيم لما عرض له جبريل في الهواء وقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا.

والتوكل من أعظم الأسباب التي تطلب بها الحوائج، فإن الله يكفي من توكل عليه، كما قال:

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

قال الفضيل: والله لو يئست من الخلق حتى لا تريد منهم شيئاً لأعطاك مولاك كل ما تريد.

ومنها: أن العبد إذا اشتد عليه الكرب فإنه يحتاج حينئذٍ إلى مجاهدة الشيطان، لأنه يأتيه فيقنطه ويسخطه، فيحتاج العبد إلى مجاهدته ودفعه، فيكون ثواب مجاهدة عدوه ودفعه: دفع البلاء عنه ورفعه.

ولهذا في الحديث الصحيح:

«يُسْتَجَابُ لأَحَدِكُم مَا لَمْ يُعَجِّل، فَيَقُول: قَد دَعَوْتُ فَلَم يستجب لي، فَيَدَع الدُّعَاء»(١).

ومنها: أن المؤمن إذا استبطأ الفرج ويئس منه ولا سيما بعد كثرة الدعاء وتضرعه ولم يظهر له أثر الإجابة، رجع إلى نفسه باللائمة ويقول لها: إنما أتيت من قبلك ولو كان فيك خير لأجبت.

وهذا اللوم أحب إلى الله من كثير من الطاعات فإنه يوجب

---

(١) أخرجه البخاري (١١/ ١٤٠) ومسلم (٤/ ٢٠٩٣) من حديث أبي هريرة.

انكسار العبد لمولاه، واعترافه له بأنه ليس بأهل لإجابة دعائه فلذلك يسرع إليه حينئذٍ إجابة الدعاء وتفريج الكرب، فإنه تعالى عند المنكسرة قلوبهم من أجله، على قدر الكسر يكون الجبر.

قال وهب: تعبد رجل زماناً ثم بدت له إلى الله حاجة فصام سبعين سبتاً يأكل في كل سبت إحدى عشرة تمرة، ثم سأل الله حاجته فلم يعطها فرجع إلى نفسه فقال: منك أتيت، لو كان فيك خير أعطيت حاجتك. فنزل إليه عند ذلك ملك، فقال: يا ابن آدم ساعتك هذه خير من عبادتك التي مضت وقد قضى الله حاجتك.

أهين لهم نفسي لكي يكرمونها ... ولن تكرم النفس التي لا تهينها

فمن تحقق هذا وعرفه وشاهده بقلبه، علم أن نعم الله على عبده المؤمن بالبلاء أعظم من نعمه في الرخاء، وهذا تحقيق معنى الحديث الصحيح عن النبي ﷺ:

«لا يقضي الله للمؤمن قَضَاء إلَّا كانَ خيراً له، إن أَصابَتْهُ سَرَّاءُ فَشَكَرَ كَانَ خيراً له، وإن أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ كان خيراً له، وليس ذلك إلَّا للمؤمن»(١).

ومن ههنا كان العارفون بالله لا يختارون إحدى الحالتين على الأخرى، بل أيهما قدر الله رضوا به وقاموا بعبوديته اللائقة به.

وفي «المسند» والترمذي عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «عَرَضَ عَليَّ رَبِّي لِيَجْعَلَ لِيَ بَطْحَاء مكَّة ذَهَباً فقلْتُ: لَا يا رَبِّ،

---

(١) أخرجه مسلم (٤/٢٢٩٥) من حديث صهيب بن سنان.

ولكِن أَشْبَعُ يومَاً، وأجوعُ يَوْماً فإذا جُعْتُ تَضَرَّعْتُ إليكَ وذَكَرْتُكَ، وإِذا شَبِعْتُ شَكَرْتُكَ وحَمِدْتُكَ»[1].

وقال عمر: ما أبالي أصبحت على ما أحب أو على ما أكره لأني لا أدري الخير فيما أحب أو فيما أكره؟[2].

وقال عمر بن عبد العزيز: أصبحت يوماً وما لي سرور إلاَّ في مواقع القضاء والقدر.

يا هذا لِمَ نستدعيك إلينا وأنت تفرُّ منا! نسبغ عليك النعم فتشتغل بها عنا وتنسانا! فنفرغ عليك البلاء لترد إلينا! وتقف على بابنا، ونسمع تضرعك! البلاء يجمع بيننا وبينك! والعافية تجمع بينك وبين نفسك!.

إن جَرَى بَيْنَنَا وبَيْنَكَ عَتَبٌ ... أو تَنَاءَت مِنَّا ومِنْكَ الدِّيارُ
فالودادُ الذي عَهِدْتَ مُقِيمٌ ... والأَيَادِي التي عَهِدْتَ غِزارُ
كَمْ لَنَا في طَيِّ البَلاَيَا مِنْ مِنَحٍ ... وعَطَايَا وفي الزَّوَايَا خَبَايَا

يا هذا! إن شكرت نعمنا عليك فتوفيقك للشكر من جملة نعمنا فاشكره! وإن صبرت على بلائنا فالصبر من جملة فضلنا فاذكره! فكل ما تتقلب فيه فهو من نعمنا فلا تكفره!

---

(1) أخرجه أحمد (٥/٢٥٤) والترمذي (٢٣٤٧) والطبراني في الكبير (٨/٢٤٤، ٢٤٥) وإسناده ضعيف جداً؛ فيه عبيد الله بن زحر ضعيف وعلي بن يزيد الألهاني متروك.

(2) أخرجه ابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة (ص ٢١).

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةً عَلَيَّ لَهُ في مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكرُ
فَكَيْفَ وُقُوعُ الشُّكرِ إلَّا بِفَضْلِهِ وإن طَالَت الأَيَّامُ واتَّصَل العُمْرُ
إذا مَسَّ بالسَّراء عَمَّ سُرُورُهَا وإِنْ مَسَّ بالضَّراءِ أَعْقَبَهَا الأَجْرُ
وَمَا مِنْهُمَا إلَّا لَهُ فيه مِنَّةٌ تَضِيقُ لَهَا الأوْهَامُ والبَرُّ والبَحْرُ

[تَمَّ الكتاب بحمد الله ومنّه وكرمه وحسن توفيقه]

بعونه تعالى تَمَّ التعليق على هذا الكتاب
وتحقيقه في الثاني من جمادى الآخرة ١٤٠٦هـ.

فقير عفو ربه

محمد بن ناصر بن محمد الصالح العجمي

فهرست الأحاديث النبوية

الحديث	الصفحة

الحديث	الصفحة

الحديث	الصفحة


● ● ●


فهرست الموضوعات


الموضوع	الصفحة

● ● ●

١٣/١٢/٧٥/١٦٠






Bibliotheca Alexandrina
0917673